غالب هلسا

نقد الأدب الصهيونيّ

دراسة آيديُولوجيّة ونقديّة لأعمال الكاتب الصهيُوني

□ عاموس عوز □

مع الترجمة العربيّة الكاملة لروايته

الحروب الصليبيّة

Bibliotheca Alexandrina
0143848

89

16530
892.436
ه ل س
ن
الاسكندرية
رقم التسجيل: ١٥٢٨٥

نقد الأدب الصهيوني

دراسة آيديولوجية ونقدية لأعمال الكاتب الصهيوني

□ عاموس عوز □

مع الترجمة العربية الكاملة لروايته

الحروب الصليبية

809,88924
غال غالب هلسا
نقد الأدب الصهيوني / غالب هلسا.
عمان : دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، بيروت:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994 (132) ص
ر . إ . (1993/11/1279)
١- الأدب اليهودي - نقد أ - العنوان
تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية: 1993/11/1279.

الطبعة الأولى

1995

غالب هلسا

نقد الأدب الصهيوني

دراسة أيديولوجية ونقدية
لأعمال الكاتب الصهيوني:

عاموس عوز

مع الترجمة العربية الكاملة لروايته

الحروب الصليبية

حقوق الطبع محفوظة

دار التنوير العلمي
للنشر والتوزيع

ص. ب (4237) المحطة،
عمّان - 11131 - الأردن.
هاتف: 899619 (9626) ++
فاكس: 899619 (9626) ++

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، شارع برلين
بناية برج الكارلتون
ت: 807900/1 ص.ب.: 11-5460
تلكس: LE/DIRKAY 40067 برقياً: موكيالي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
(1) دراسة أيديولوجية ونقدية لأعمال الكاتب الصهيوني عاموس عوز:	7
– في مكان آخر ربما	8
– تل المشورة الشريرة	15
– الحب المتأخر	25
– الحروب الصليبية	31
– المسائل الآيديولوجية	36
– المسائل الفنية	58
(2) ترجمة رواية "الحروب الصليبية" للكاتب الصهيوني عاموس عوز	67
الهوامش	132

(1)
نقد الأدب الصهيوني
دراسة أيديولوجية ونقدية
لأعمال الكاتب الصهيوني:
عاموس عوز

أعتقد أنّ خير وسيلة أقدم بها كاتباً صهيونياً لا يكاد يكون معروفاً بين القراء العرب هي أن أبدأ بتقديم تلخيص سريع لرواياته الأربع التي أتيح لي الاطلاع عليها، وهي: «في مكان آخر، ربما» ؛ «تل المشورة الشريرة» ؛ «الحب المتأخر». أما الرواية الرابعة «الحروب الصليبية» فسوف يجد القارئ نصها الكامل هنا.

وبعد التلخيص سوف انتقل إلى تحليلها الايديولوجي، ثم أنتهي بدراسة الجوانب الفنية لهذه الأعمال الأربعة.

في مكان آخر، ربما

طبعت هذه الرواية باللغة العبرية عام 1969، وقام المؤلف بترجمتها إلى الإنجليزية بالاشتراك مع نيكولاس دولانج، ونشرت في عام 1973. والتلخيص الذي أقدمه يستند إلى الترجمة الإنجليزية.

تبدأ الرواية بعرض المكان الذي تدور فيه الأحداث، وهو مستعمرة (مستودات رام) الواقعة بالقرب من البحر الميت. ولجغرافية المكان أهمية خاصة : فهي تقع على بعد ميلين من الحدود الأردنية. وهي قطعة خضراء مشرفة على سفح جبل كئيب:

«الجبال عارية وصخرية، تتخللها وهاد متعرجة مع تقدم النهار تنسكب ظلالها تدريجياً على المنخفضات وكأن الجبال تريد أن تتخفف من وحدتها القفراء بهذا التلاعب الكئيب بالظل ...» .

وخلال الرواية يتأكد هذا التناقض بين المستعمرة الخضراء التي خلقها العمل الإنساني كرمز للإبداع (الصهيوني)! وبين الجبل الكئيب الذي يجسد التهديد العربي: هذا الجبل الذي يهدد بالانقضاض على المستعمرة وسحقها تماماً. تتحدث الرواية باسم الضمير الجمعي أنّ سائحاً جاء إلى المستعمرة «...وهو جنرال هولندي بلغ به الصلف أنْ يقول وهو يؤكد خبرته العسكرية إنّ الجبل على وشك السقوط علينا وسحقنا...».

فوق قمة هذا الجبل يوجد (العدو) الأردني الذي يشكل «حضوراً معادياً، مهدداً، ومخيفاً.لهذا السبب يقوم كشاف الضوء القوي الموضوع فوق برج المياه بسوط الحقول المحيطة وجلدها وهو يتحسس طريقه بتردد؛ يدور متحدياً التلال المواجهة بشعاع نهم ذي لمعان مرتعش. شعاع آخر ينبثق في مواجهتنا، شعاع ينزلق فوقنا، وينهشنا بأصابعه الشريرة البراقة».

هكذا يبدو العربي في الرواية ويستمر هكذا: شبه ظاهرة طبيعية، شريرة، تهدد بالشر! تقول الرواية باسم الضمير الجمعي للمستعمرة:

«لمدة ألف عام كان هذا المكان قفراً، إلى أن جاء مستوطنونا الأوائل ونصبوا خيامهم فجعلوا الصحراء تزهر بأحدث الوسائل الزراعية. بالطبع كان هنالك فلاحون عرب قلائل قبل مجيئنا، ولكنهم كانوا فقراء وبدائيين. كانوا بملابسهم القاتمة فريسة سهلة لعوامل الجو وكوارث الطبيعة؛ للفيضانات والجفاف والملاريا. لم ينبثق منهم أثر عدا خرائب متناثرة، أخذت أطلالها تشحب وتختفي تحت التراب الذي جاءوا منه. هرب سكانها إلى الجبال، ومن هناك أخذوا يلقون علينا كراهيتهم التي لا تستند إلى أساس والتي تفتقد كل معنى. لم نسبب لهم ضرراً. جئنا بالمحاريث فردوا على تحيتنا بالسيوف. ولكن سيوفهم ارتدت عليهم»!!

«في فترة جيل واحد قمنا بثورة قوية رائعة ولكننا دفعنا ثمنها غالياً بدمنا...».

ولكننا نجد صورة أخرى للعربي مصدرها المرأة. يبدأ وعي الطفل (جاي هارش) البالغ من العمر سبع سنوات برجولته حين يواجه هاتين المرأتين: معلمته وأخته.

«يفتح (جاي هارش) الباب وينسى أن يلقي التحية؛ (روفين) – أبوه – يعنفه. فيقول:

– حسناً. هالو. ولكنني لا أريد كوكا كولا.

ويهبط على السجادة، كالعادة، ودون توقف يأخذ في حديث مثير للإزعاج جداً. هذه هي خلاصته:

– بعد ظهر اليوم، بعد درس الجغرافية، حدثتنا (ميرونكا) عن العرب. وأية أفكار! كأنها طفلة تعتقد أنهم يطلقون النار على اليهود من

دون قصد، أو شيء كهذا، تقول إنهم لا يكرهوننا أبداً، إنهم مجرد أناس فقراء وسكرتيرهم في دمشق يأمرهم بالحرب، ويجب ألا نكرههم لأنهم عمال وفلاحون مثلنا. إذن من نكره، هه؟ وتقول إنهم سوف يعقدون معنا سلاماً في القريب العاجل. أعتقد أنه شيء غير تعليمي أن نقول لتلاميذ السنة الثالثة أشياء غير صحيحة. في الواقع نحن نطلق النار عليهم وليس على الذين في دمشق. وعندها ينطوون على أنفسهم ويهدأون. لن يكون هنالك سلام حتى نقضي على جميع السوريين ـ أليس كذلك يا بابا؟

قالت اخته (نوكا):

- انظر ما أوسخ وجهك. اذهب إلى الحوض رأساً وسوف أغسله لك.

- اصمتي. ألا ترين أنني منشغل في الحديث مع بابا؟

قالت (نوكا) بحدة:

- كلمني أنا واصغ لما أقول.

فرد الطفل:

- (نوكا)، عندما يتحدث الكبار فعلى النساء ألا يتدخلن».

والرواية تتابع بدقة تسجيل الحياة اليومية في المستعمرة، وتتكرر هذه المتابعة أحياناً إلى درجة الإملال. ومن خلال ذلك تتكشف الخطوط الرئيسية للرواية:

(روفن هارش) معلم في مدرسة المستعمرة، وهو بالإضافة إلى هذا شاعرها ودليل السائحين الذين يأتون لزيارتها، رغم أنه يعيش مأساة سببها أحد هؤلاء السائحين. فقد جاء ابن عم زوجته (إيفا) يزور المستعمرة، وحل ضيفاً على (هارش). في البداية تبدي الزوجة نفوراً يبلغ حد التقزز من ابن عمها، ثم فجأة تنشأ بينهما علاقة، فتتزوجه بعد أن تطلق زوجها. تسافر معه إلى (ميونيخ) ـ في ألمانيا ـ حيث كان يمتلك نادياً

ليلياً بالاشتراك مع يهودي آخر اسمه (زخريا) سوف يكون له شأن في مجرى الأحداث. وقد خلفت (ايفا) وراءها ابنة هي (نوكا)، وطفلاً هو (جاي).

إنّ الأخبار التي تصل المستعمرة عن هؤلاء الثلاثة ـ (زخريا) و(إيڤا) وزوجها- تثير اشمئزاز الجميع:

«أضافت مصادرنا الموثوقة التي سنكشفها بعد قليل أنّ ذوق (إيڤا) الحساس قد أضفى الشرارة التي اشعلت أخيلتهم. إن اللياقة تمنعنا من إيراد المزيد من التفاصيل».

وحين نبحث عن سبب هروب (إيڤا) من المستعمرة نجد سببين: الأول، تكشفه حادثة يتذكرها زوجها ويرويها من خلال مونولوج داخلي. كان ذلك عندما كانت المستعمرة مجرد مجموعة من الخيام، وكانت ظروف الحياة صعبة. وقد جاءت (إيڤا) لتعيش مع زوجها (روفين) في خيمته ... في إحدى الليالي ذهب (روفين) و(إيڤا) مع مجموعة من المستوطنين لمشاهدة إحدى المسرحيات في حيفا. وبعد أنْ شاهدت المجموعة المسرحية أخذت تناقش المسرحية في طريق عودتها إلى المستعمرة. استنكر فرد من المجموعة اصرار المسرح على تقديم حياة البؤس والشقاء التي كانت تسود الجيتو اليهودي في بلدان أوروبا التي كانت تضطهد اليهود. ولكن (روفين) قال: إن حياتنا الجديدة يجب ألا تتنكر لحياتنا القديمة. إن على اليهودي ألا ينسى عذابه الذي عاناه.

فجأة قالت (إيڤا) : إنّ على المسرح أنْ يعرض المسرحيات ذات الموضوعات البسيطة: موضوعات الحب والموت مثلاً.

في موضوع آخر يقول (روفن) إن زوجته كانت في البداية لا تستطيع أن تخفي تقززها من ابن عمها.

لقد كان شخصية بذيئة، منحلة، سمجة. ولم تكن تطيق حتى رؤيته. ثم

فجأة غادرت المستعمرة لتعيش معه. ومن أوروبا أرسلت رسالة إلى زوجها السابق (روفين) تقول فيها إنها نشأت مع ابن عمها في بيت واحد. وقد كان صبياً لطيفاً. ولكن الحرب شوهته. إن العذاب الذي عاناه كيهودي في أيام الحرب هو الذي أدى به إلى التفسخ والانحلال. إنها تشعر بعمق أنه من واجبها هي وحدها أن تنقذه وتطهره.

وهذا بالطبع مالم يحدث. فـ (إيڤا) قد أصبحت أكثر سوءاً من زوجها ومن شريكه (زخريا بيرغن).

بعد أنْ هجرته (إيڤا) أقام (روفن) علاقة مع معلمة زميلة له هي (برونكا). وهي سيدة في الخامسة والأربعين من عمرها وزوجة لسائق شاحنة تنقل العنب من المستعمرة إلى تل أبيب. وهو أخ لـ (زخريا بيرغن)، شريك (إيڤا) وزوجها في النادي الليلي في (ميونيخ). والزوج رجل جاوز الخمسين من عمره، شبه أمي، يحفظ التوراة. ويفسر كل ما يحدث له وللآخرين بنصوص من التوراة.

عندما يشعر الزوج بأنّ زوجته قد أقامت علاقة مع (روفن) يضاعف ساعات عمله التي يقضيها خارج المستعمرة، فيخرج في الصباح ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، ويدع البيت لزوجته تلتقي فيه مع صديقها دون إزعاج.

وفي الوقت نفسه تنشأ علاقة جسدية بين ابنة (روفن) فاتنة المستعمرة وبين السائق زوج عشيقة أبيها، وتحمل منه. وعندما يناقشها والدها ويحاول إقناعها بإنهاء العلاقة وبالإجهاض ترفض الطلبين وتصر على

المضي في العلاقة. إنها تقول إنها تفعل ذلك لتكفر عن ذنب أمها.

جميع سكان المستعمرة يتعاطفون مع ما تم، ولا أحد يدين (نوكا)، بما في ذلك الفتى الذي يحبها والذي تزوجها وهي حامل.

ثم يحدث أن يذهب (روفن) إلى تل أبيب. ويرسم الكاتب صورة بشعة لتل أبيب. يرى (روفن) طفلاً يبكي فيحاول تهدئته، فيعتقد والد الطفل أن (روفن) هو الذي اعتدى على الطفل، فيقول للطفل:

«... بابا سوف يقتل ابن الزانية على الفور إذا كسر عظماً من عظامك...».

ويقول للطفل:

-«... أبصق على الرجل الشرير يا حبيبي (ياتسيون)، أبصق عليه. حسناً فعلت».

يذهب روفن إلى مقهى، وهناك يشعر بدوار، ثم يصاب بأزمة قلبية خفيفة. إن الذي ينقذه هو (عزرا بيرغن)، زوج عشيقته، وعشيق ابنته.

كل هذا يحدث في إطار من الحب. الجميع يثرثرون ولكن عواطفهم تتفجر بمودة وتفهم نحو (روفن) و(برونكا) ونحو (نوكا) و(عزرا).

ولكن حياة المستعمرة تضطرب عندما يأتي (زخريا بيرغن)، شقيق (عزرا) سائق الشاحنة، زوج (إيفا) وشريكها في ملهى ميونيخ. إنه يأتي في زيارة قصيرة، ولكنه يود فجأة أن يمدد إقامته. ونكتشف فيما بعد السبب. لقد وقع في حب (نوكا) وهو يحاول إغراءها بأن ترافقه إلى ميونيخ، بدعوى أن أمها هي التي ترغب في ذلك.

ويأخذ (زخريا) في نشر تأثيراته السيئة. يشجع ابن أخيه الصغير على

التدخين ويحاول أن يقنع ابن أخيه الأكبر المتزوج حديثاً بمرافقته إلى تل أبيب ليذيقه المتع المحرمة. كما يحاول أن يبتز زوجة أخيه بسبب علاقتها مع روفن، ويبتز أخاه بسبب علاقته مع (نوكا) ويبتز (نوكا) بسبب وضعها. كما أنه أحد الذين حصلوا على التعويضات الألمانية، وبدلاً من أن يتبرع بها للحكومة كما يفعل الآخرون، يأخذها لنفسه ليفتح بها ملهى ليلياً.

وفي النهاية تثور المستعمرة كلها عليه فتطرده ويغادر المكان دامع العينين.

وتنتهي الرواية بموت (روفن)، وزواج (نوكا) من جندي المظلات الذي يحبها وتحبه، وعودة (برونكا) إلى أحضان زوجها السائق.

تل المشورة الشريرة

والتل المقصود هنا هو جبل المكبر في القدس الذي أقيمت فوقه دار المندوب السامي البريطاني. أما إطلاق اسم المشورة الشريرة عليه فلم أفهم دلالته.

الرواية محكية على لسان الابن الأصغر.

تبدأ الرواية في أيار 1946. أقامت الوكالة اليهودية احتفالاً في سينما (اديون) في القدس بمناسبة الذكرى الأولى لانتصار الحلفاء. ودعت الوكالة إلى الحفل المندوب السامي البريطاني وغيره من كبار الشخصيات، وبينما كان يعرض فلم عن انتصار (مونتيجومري) على (رومل) توقف العرض فجأة وأضيئت الأنوار ونادى صوت:

– هل يوجد طبيب في المكان؟

نهض الأب وقدم نفسه. اتضح أن أخت زوجة المندوب السامي قد أصيبت بحالة إغماء. تقدم الأب نحوها وقدم لها كأس ماء، ثم، بعد تردد، مد يده داخل ملابسها وفك سحاب الكورسيه، فأفاقت السيدة وطلبت فتح الشبابيك وعادت إلى حالتها الطبيعية.

ورجع الأب إلى مكانه. والواقع أنه لم يكن طبيباً بشرياً، بل كان طبيباً بيطرياً. ولد في ألمانيا، ودرس في معهد الطب البيطري في لايبزج، حيث تخصص في أمراض الحيوانات الاستوائية وشبه الاستوائية. وفي عام 1932 هاجر إلى فلسطين.

بعد وصوله قام بجولة على الأقدام حتى وصل إلى منابع نهر الأردن. وتحمل هذه الجولة دلالات إعادة الانتماء إلى (أرض الأجداد)، كما أن هنالك توازياً بين الوصول إلى منابع نهر الأردن، ومد الجذور في الأرض بحثاً عن المنبع. وهو خلال ذلك يبحث عن فعل يجسد حلمه بإعادة التجذر داخل الأرض، فيحلم بإقامة مزرعة كبيرة في منطقة الجليل، فيها الكثير من البقر والأغنام، وفيها كوخ صغير يعيش فيه ويقرأ ويكتب الدراسات والأشعار التي ينوي كتابتها. ولكن حلمه هذا لا يتحقق - لم يحن الوقت لتحقيقه -، فتنصحه الوكالة اليهودية بشراء مزرعة برتقال صغيرة في مستعمرة (نس تسيونا)، وشراء بيت في إحدى ضواحي القدس. يفعل ذلك، ولكن يظل يحلم بإقامة مزرعة كبيرة في أعالي الجليل.

من الواضح هنا أن العودة إلى الأرض ليست مجرد حلم رومانسي، بل هي عمل مخطط للاستيلاء (لاستعادة) على الأرض قطعة قطعة. فهنالك أعداء يجب مواجهتهم والتغلب عليهم.

وكانت صداقات الطبيب محدودة جداً لا تزيد عن ثلاثة أشخاص أو أربعة؛ وهو متزوج وله طفلان.

الزوجة ولدت في (وارسو). وكما سوف نرى فهي صورة للسيدة

المندمجة في المجتمع المسيحي-اللايهودي، وتلك هي خطيئتها. جاءت إلى القدس، شابة صغيرة، لتدرس التاريخ العبري القديم في الجامعة العبرية. وهي في هذا تسير في خط مواز لخط زوجها. كلاهما يبحث عن جذور في (أرض الأجداد). ولكن في الوقت الذي يعمق فيه زوجها جذوره في تربة (الوطن القومي)، نراها، وقبل أنْ ينتهي عامها الأول، قد سئمت كل شيء وقررت أن تغادر فلسطين لتعيش مع أختها في أميركا، أي أن تعود إلى الاندماج مرة أخرى.

وخلال استعداد هذه السيدة للسفر تتحطم السفينة التي كانت سوف تحملها، فيغلق في وجهها باب الهجرة وتبقى مرغمة على البقاء في فلسطين حيث تتزوج الطبيب البيطري.

وبعد الزواج كانت (روث)- وهذا هو اسم الزوجة - كثيرة التذمر والشكوى، وفي حالة توتر دائم. وكان سبب توترها أنها تستعيد حياة الاندماج في ذاكرتها فتحن إليها. والاندماج هو أكبر عامل يهدد الفكر الصهيوني والمطمح الصهيوني في تكوين دولة عبرية. كانت (روث) تسترجع حياتها بحسرة بين المسيحيين -وهي اليهودية- في (وارسو) وتشتاق إلى ما كانت تحاط به من حب وإعجاب. كان لها عاشق صغير في مثل سنها، وكانت أجمل بنات مدرستها، وكان أحد أساتذتها يقول إن لها صوتاً يحمل صدى روح الشعر، وهو يقول عنها: «لو كانت الغزلان تستطيع الغناء، فمن المؤكد أنها سوف تغني مثل (روث) الصغيرة».

لقد أفسد(روث) احتضان العالم اللايهودي لها فنسيت أنّ عليها أنْ تعامل المسيحيين بحذر وأنْ تكن لهم الكراهية سراً، فهم الذين اضطهدوا اليهود. ولقد عبرت (روث)عن فسادها بشكل صريح حين امتدحت الطبيعة البولندية وذمت الصحراء الفلسطينية. فحين كانت في بولندا كتبت قصة تقول فيها إنّ المطر سوف ينهمر على الجبال والسهول والمروج، ولكنه لن ينهمر فوق الصحراء القبيحة.

و(روث) هنا حطمت مقولة أساسية من مقولات الفكر الصهيوني؛ وهي أنّ اليهودي عندما يصلي يقول في صلاته: «في العام القادم نلتقي في فلسطين». وهذا يعني أنّ كل يهودي له حلم واحد يسيطر عليه ليل نهار وهو الذهاب إلى فلسطين. إنّ هذا هو المبرر الأساسي لإقامة (دولة عبرية) في فلسطين؛ إذ إن اليهود حين يهجرونها فهم دائماً يحلمون بالعودة إليها. وهكذا فإنها حين تفضل الطبيعة البولندية على الصحراء الفلسطينية فهي تقف ضد الحلم الذي يجب أن يحلمه كل يهودي. أما الرمز إلى فلسطين بأنها صحراء قبيحة فهو تأكيد للمقولة الصهيونية: أنّ فلسطين قد تحولت إلى صحراء لأنها أرض بلا شعب. وعندما يعود إليها شعبها من خلال الهجرات فإنها سوف تصبح الأرض التي تدر لبناً وعسلاً على ساكنيها.

وهي تخون رسالتها كيهودية - من منطلق الفكر الصهيوني - على نحو آخر. وذلك حين تشكو من كون الأرض جرداء وقاحلة، وهي نفس شكوى (إيفا) في رواية «في مكان آخر، ربما». إن كون الأرض قاحلة وجرداء يعود إلى كونها أرضاً بلا شعب. وعندما يعود الشعب إليها، يجب عليه أن يعمرها، ويعيد الحياة إليها.

فها هي (روث) تعيش مع زوجها وطفلها في إحدى ضواحي القدس. الأرض حول بيتها جرداء؛ شبه صحراء؛ مجرد أكوام حجارة، وفراغات كبيرة. وهي لا تفكر في تعمير هذه الأرض، بل تظل تصرخ في عصبية: «لن تكون زهور في هذا المكان. سيكون هنالك طوفان أو ستكون حرب، وكل الزهور سوف تموت».

كل صراخها هذا كان رداً على خطبة شديدة اللهجة ألقاها زوجها عن المستقبل الجميل الذي ينتظرها، ولكنها لا تنقطع أبداً عن صراخها العصبي، إنها تندفع فجأة زاعقة:

- انتهى كل شيء. مات وانتهى! ضاع!

أحياناً تسأل (روث) زوجها:

- ماذا سوف يحدث يا (هانز)؟

فيجيب الزوج بحماس:

- آمل بثقة أن تتجه الأمور إلى الأحسن.

في مثل هذا الوضع والعلاقة بين الزوجين على هذا النحو جاءت دعوة من دار المندوب السامي البريطاني تدعوهما لحضور حفلة سوف تقام هناك. كان ضيف الشرف في الحفلة بطل مالطا الادميرال (سيركينيث سذرلاند). كان الأدميرال في الحفلة «يقف محاطاً بمجموعة من الضباط والشخصيات المهمة والأعيان العرب الذين كانوا يضعون على رؤوسهم طرابيش حمراء، وتمتد عبر بطونهم سلاسل ساعات ذهبية، وسيدات بريطانيات ذوات تعبير حزين، متلهف، وعيون لامعة...».

«تحت الشرفة وقفت مجموعة من الشخصيات البارزة من الجالية اليهودية، من ضمنها بعض زعماء الوكالة اليهودية البارزين ... كانوا يقفون على شكل نصف دائرة متحمسة حول الناطق الرسمي باسم الحكومة البريطانية ... نطق بملاحظة أو اثنتين فيهما بعض القسوة حول الجامعة العربية، التي فسرها اليهود البارزون بأنها بادرة طيبة. وألقى (موشيه شرتوك) بتلميح إلى الآخرين بأنّ عليهم أنْ يكتفوا بهذا الإنجاز وأن يغيروا الموضوع فوراً حتى لا يتجاوزوا الحد».

على البار شرب الزوج عصير طماطم وشربت الأم كأس براندي. تلا ذلك الرقص. رقصت (روث) مع كثيرين، وانتهت بين ذراعي الادميرال. أما الزوج فقد جلس على مائدة واحدة مع سيدة عربية مثقفة وهي (جوزيت البشاري). فبدأ الزوج معها حديثاً عن الطب البيطري، وتوسع

في ذكر منافع حليب الماعز. ثم مر بهما المندوب السامي وحياهما، فقال الزوج لـِ (جوزيت):

- أعرف رجلاً يشبه المندوب السامي ولكنه يكره المندوب السامي جداً.

قال ذلك بلغة إنجليزية تخالطها لكنة ألمانية ثقيلة. فأجابت السيدة العربية بلغة ألمانية سليمة وبحماس منضبط:

- على أية حال، لا يوجد هنالك أي أمل.

قال الطبيب البيطري:

- لا أعتقد يا مدام أنني أتفق معك حول هذه النقطة.

ابتسمت (جوزيت) بصبر وقالت:

- سوف أحاول أنْ أوضح ما أقول بمثال صغير. لنأخذك أنت كمثال. لقد غادرت أوروبا إلى فلسطين منذ أربعين عاماً. ولكنك لن تصل أبداً. وفي الوقت ذاته نحن نتجه من الصحراء إلى أوروبا، ولن نصل أيضاً. لا يوجد أدنى احتمال لأن نلتقي في منتصف الطريق. أظن يا سيدي أنك تعتبر نفسك اشتراكياً ديمقراطياً؟

أبدى الأب دهشته وقال:

- أليس من المؤكد أننا نلتقي في هذه اللحظة؟

لم تجب السيدة، بل نهضت وغادرته بعد أن اعتذرت له باللغة الفرنسية التي لا يعرفها.

وقبل أنْ نحلل هذا الموقف من منطلق الفكر الصهيوني يجب أن نذكر أنه يقوم على سوء تفاهم بين الطبيب والسيدة العربية. فعندما قال الطبيب إنه يعرف شخصاً يشبه المندوب السامي ويكرهه، فهو قد أدلى

بملاحظة ساذجة لا هدف منها، ولا تدل إلا على سذاجة الطبيب وطيبة قلبه. ولكن السيدة العربية المثقفة أساءت الفهم واعتقدت أن اليهودي الطبيب يعني أن العرب واليهود متفقون في عدائهم للبريطانيين وأن هذا يمكن أنْ يكون أساس اللقاء بينهم.

فلهذا جاء رد السيدة العربية ليرد على هذه الفكرة. العرب يطلبون الاستقلال، وبهذا يبتعدون عن أوروبا، في حين أنّ اليهود جاءوا من أوروبا ليستعمروا فلسطين؛ فلا يوجد أي لقاء بينهم وبين العرب. وهي تشير إلى أنّ القول بالتقاء العرب والصهاينة انطلاقاً من مبادئ الاشتراكية الديمقراطية هو قول لا معنى له لأنه لا يستطيع أن يرى الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية.

يرد الطبيب على هذا بمنطق الإنسان الساذج البعيد عن تعقيدات المثقفين بأنهما ملتقيان بالفعل لأنهما يجلسان على مائدة واحدة. فتعتقد السيدة العربية أنه سوف يبدأ في عرض مبادئه الاشتراكية الديموقراطية فتنهض احتجاجاً على النقاش في موضوع مستهلك.

والفكرة الأساسية وراء هذا الموقف هي إبراز (سوء نية العربي). إن الطبيب لا يفهم في السياسة شيئاً وامتع الأحاديث لديه الحديث عن منافع حليب الماعز، بينما تجيء هذه المثقفة العربية وتعتقد أنه سوف يخدعها. ووراء ذلك كله الفكرة الصهيونية القائلة بأن الصهاينة جاءوا ليعمروا أرضاً خراباً ويمدوا أيديهم بالمحبة إلى العرب، ولكن العرب بسبب سوء طويتهم -كما يذيع الصهاينة- قابلوهم بالسيف. ولهذا فكل سوء يحدث سببه سوء ظن العرب بالقصد (الطيب) للصهاينة.

بعد أن تنصرف (جوزيت البشاري) يجلس الطبيب وحيداً يراقب زوجته. إنها الآن ترقص مع الأدميرال. يراه يمسكها بين يديه، ويقذف بها في الهواء، ثم يعود ليتلقفها بين يديه، ويقذف بها في الهواء ثم

يمسك بيد الزوجة؛ يقبل يدها، ينفخ عليها، ثم يمررها على أنفه. فتمد هي يدها وتلمس خده. تعزف الموسيقى فيرقص الاثنان متضامين؛ الزوجة تضع رأسها على كتف الأدميرال، وذراعه تحيط بخصرها.

إننا نشهد هنا عملية اغتصاب أمام الجميع وبموافقتهم. ومن الواضح أنّ ذلك يشير بوضوح إلى أنّ هذه البشاعة التي تحدث أمام جميع العيون هي حقيقة اندماج اليهودي في المجتمعات اللايهودية. إنّ الزعماء اليهود في المجتمع المندمج المرموز إليه بالحفلة يتلقون الفتات البائس من الناطق الرسمي البريطاني فيشعرون أن ذلك أكثر مما يستحقون: «والقى موشيه شرتوك بتلميح إلى الآخرين أن يكتفوا بهذا الإنجاز وأن يغيروا الموضوع فوراً حتى لا يتجاوزوا الحد». أما الزوجة (روث) فقد حاولت أن تندفع في عملية الاندماج في هذا المجتمع اللايهودي فعوملت كمومس. أما الطبيب فكانت نتيجة تلبيته لدعوة المندوب السامي أسوأ النتائج على الإطلاق.

انتظر الطبيب البيطري عودة زوجته. ولكن الحفل انتهى وانصرف الجميع ولم تجيء. ومضت ساعة وساعتان وهو واقف ينتظر ويرتعش من البرد. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل اصبح في حالة بائسة جداً. «اغمض عينيه. تذكر فجأة عالم الطيور البافاري الذي شق برفقته طريقاً عذراء منذ عدة سنين إلى منابع نهر الأردن في أقصى جزء من البلاد. تذكر برودة قمم الجبال وقمم (حرمون) الثلجية».

وفي تلك اللحظات تمنى بشدة لو تأتي المنظمات السرية الصهيونية في هذه الدقيقة بالذات وتنسف المكان من أساسه فتدكه دكاً وتجعل أجزاءه ترتفع إلى السماء...

وعندما فتح عينيه وجد أخت زوجة المندوب السامي أمامه. سألته

عن سبب بقائه حتى هذه الساعة المتأخرة. فأجاب:

- إنني أنتظر زوجتي.

فضجت السيدة بالضحك وقالت إنه لم يضحكها شيء في حياتها بقدر ما أضحكتها هذه الإجابة. رجاها أن تساعده في البحث عن زوجته، فقالت له وهي تقهقه بشدة إن زوجته قد ذهبت بعيداً مع الأدميرال ولن تعود، ولكن عليه ألا يحزن؛ فالأدميرال مولع بالاستيلاء على زوجات البعض، وهو سيدفع تعويضاً مجزياً.

وتنتهي الرواية بغياب الزوجة نهائياً عن فلسطين وتحقق حلمها بالاندماج في المجتمع اللايهودي، ولكن من خلال تحولها إلى مومس. وعند قيام الكيان الصهيوني يصبح الزوج مدرساً للطب البيطري في الجامعة العبرية. البيت يصبح نظيفاً ومحاطاً بالزهور والخضرة. تم ذلك و (العدو) الأردني قد أقام تحصيناته فوق التلال المحيطة بالقدس، وأخذ ينتظر.

هنا يتضح أنّ الخطر الأكبر على اليهودي، من منطلق الفكر الصهيوني، هو الاندماج. والنتيجة هي الإهانة؛ تحويل النساء إلى مومسات، وتحويل الزعماء اليهود إلى مجموعة بلهاء تعتقد أنها حققت نصراً خرافياً لمجرد أنّ الناطق الرسمي أطلق تعليقاً غير مناسب على الجامعة العربية. إنّ اليهودي يسترد كرامته من خلال الانتماء إلى الأرض ومن خلال العنف ضد المجتمع الذي يطالب اليهودي بالاندماج!

الحب المتأخر

في هذه الرواية يتوصل (عاموس عوز) إلى طرح جديد لمعطيات الفكر الصهيوني، ولكن يجب أنْ نحذر التصور الذي قد يذهب إلى أنّ (عوز) قد فقد ثقته بالكيان الصهيوني وأنه يعمل على هدمه. كل ما نستطيع قوله هنا هو أنه طرح معطيات الفكر الصهيوني انطلاقاً من آثاره على الفرد الصهيوني كما يجسده الواقع العملي. إنّ السؤال أو الأسئلة التي يحاول (عاموس عوز) أنْ يجيب عنها في هذه الرواية تتلخص بالتالي:

- ما هي النتائج العملية للانتصار على فكرة اندماج اليهود في المجتمعات اللايهودية؟

- ما هي نتائج الإلحاح على العذاب اليهودي واعتبار العالم كله قد

شارك في اضطهاد اليهود؟

- ماذا يحدث لشخصية اليهودي في كيان عنصري معادٍ للعالم كله؟

إنّ (عاموس عوز) يجيب عن هذه الأسئلة بأنّ ذلك كله سوف يؤدي إلى التحلل العقلي والرغبة في تدمير العالم. إنّ حلم العجوز، بطل هذه الرواية، أنْ تخترع دولة الكيان الصهيوني صاروخاً ضخماً يستطيع تحطيم الجيوش السوفييتية والبولندية، ثم و(موشيه دايان) يستعرض الأسرى السوفييت والبولنديين الأذلاء.

إنّ هذا الحلم هو تعبير عن الرغبة التي خلقتها الصهيونية في نفس اليهودي في تحطيم العالم كله انتقاماً من تاريخ سابق.

تدور الرواية حول محاضر عجوز مهمته أنْ يتجول في المستعمرات الصهيونية ويلقي محاضرات تثقيفية. وموضوع محاضراته هو واحد لا يتغير، وهو المؤامرات الروسية. إنّ هذا المحاضر مصاب بهوس ملك عليه تفكيره وأصبح مركز جميع انفعالاته وسلوكه، ويتلخص هذا الهوس بأنّ هنالك مؤامرة روسية شديدة الإحكام يحركها إصرار لا يتزعزع بالقضاء على كل اليهود في العالم.

وهكذا يمضي هذا المحاضر العجوز وقته كله محاولاً إقناع الناس وتحذيرهم من هذا الخطر الداهم؛ يحاول أن يقابل المسؤولين في الحكومة ليشرح لهم ذلك، وخاصة «ذلك الشاب ذا الشخصية الساحرة: دايان». ولكن لا أحد يهتم بما يقول بمن فيهم صاحب الشخصية الساحرة! إنه يؤكد المرة بعد المرة أن للروس مؤسسات «يقضون الليل كله فيها يشربون الشاي الثقيل ويؤلفون مؤامرات وهمية تقوم بها عناصر يهودية فاسدة لم توجد قط».

ويصر الجميع على تجاهل تحذيراته. يذهب إلى إحدى المستعمرات ليلقي فيها واحدة من محاضراته التثقيفية. يرى القاعة شبه خالية،

فيعتذر له المسؤولون اعتذارهم المتكرر: إنّ الشبان غير موجودين لأنهم ذهبوا إلى مستعمرة أخرى ليشهدوا مباراة لكرة القدم. يجد أمامه النساء المتقدمات في السن يحكن ملابس صوفية، ورجالاً عجائز بوجوه ضامرة. رغم كل شيء سوف يشرح لهم المؤامرة. إنها كامنة في تكوين الشخصية الروسية، هذا التكوين الذي لا بُدّ له أنْ يعمل على إبادة اليهود. يحاول أنْ يشرح لهم أبعاد هذه الشخصية من خلال معايشته لها:

«تصوروا المشهد التالي: ديمتري يسير في الشارع بجوار المعبد اليهودي. ها هو يتمشى دون هدف، أشعث الشعر، يصفر لحناً مرحاً وليس في نيته فعل أي شر. يطل ديمتري من الشباك ويرى داخل المعبد أشكالاً إنسانية، صغيرة الحجم، تميل بحماس إلى الأمام وإلى الوراء. تلتقط أذناه صوتاً يشبه نحيباً خافتاً ممطوطاً. يتوقف. يمتنع عن الصفير. قلب (مبيتا) ـ تصغير ديمتري ـ يمتلىء بالعطف. ان أناساً وحيدين كهؤلاء يجب ألا نسمح لهم بأنْ يأكلوا قلوبهم حزناً لسبب غير مفهوم. وذلك أنّ هذا هو شارع (جوجول) في موسكو وليس حائط المبكى في فلسطين. وبالإضافة إلى هذا فهنالك المضاربات المالية الدائمة بدم الأم روسيا ودسمها.

كيف يستطيع (مبيتا) أنْ يسكت الشيطان الذي ينتحب في قلبه؟

وهكذا يا رفاق فإنّ (مبيتا) ينحني فجأة ويلتقط حجراً في الظلام، يزنه بغضب في يده، ينظر حوله، ثم يلقيه من الشباك ويركض مبتعداً وقلبه يفيض بالفرح والحزن. هذا هو الوضع...».

هنالك وجه آخر لشخصية الرجل العجوز. انه يعيش وحيداً في حجرة مقبضة في تل أبيب. لا يحب أحداً ولا أحد يحبه. وهو يعترف بصراحة أنه شخص منفر وأن الجميع يتجنبونه:

«إنني أزعج الناس بمجرد حضوري. مثلاً عندما تضطرني أعمالي إلى الذهاب للمركز التثقيفي أو إلى المكتب الرئيسي لحركة الكيبوتز، أجد

حـتى الضـاربات على الآلة الكاتبـة يندفـعن على الفـور يضـربن على مكائنهن خـوفـاً من أنْ أبدأ حـديثـاً مـعـهن. إلى هذ الحـد السيء وصلت الأمور».

إنّ الوحدة والحنين إلى الحياة العادية، إلى المرأة والبيت، والرغبة في أنْ يكون مـحبـوباً تثقل عليه إلى حد ممزق ومؤلم. ولهذا نراه يبـحث عن عنوان امـرأة كانـت تعمل مـعه منذ ثلاثين عـاماً. وبعـد جهـد يتـوصل إلى معرفة عنوانها. يجدها، ولكنه يكتشف أنها متزوجة، وأنها تكاد تكون قد نسيته.

يعـود إلى بيتـه ويحلم بأن يذهب مـعـها ومع زوجـها لمقابلة (مـوشـيـه دايان) ليـشـرح له أبعـاد المؤامـرة الروسـيـة. ولكن أحـداً لا يصـغي إليـه. فيـمضي وقتـه يطالع البحر الأبيض المتوسط، متـوقـعـاً أن يظهـر الأسطول الروسي في أية لحظة. ويحلم أيضـاً بأن يمتلك الكيـان الصـهـيـوني سلاحـاً مخيفاً يمحو به الدول الاشتراكية كلها ويحول أهلها إلى عبيد أذلاء.

فما هي الدلالات التي نخرج بها من هذه الرواية؟

- ان اليـهودي وقد اقنع نفسـه بواسطة معطيات الـفكر الصهيـوني بأنّ العـالم كـان دائمـاً وسوف يظل أبداً يضطهد اليـهـود فـإن على اليـهـودي أنْ يعادي العالم ويحقد عليه.

- ان مـحاولة هذا الرجل العـجوز إقناع الآخرين بخطر المؤامرة الروسيـة تتـوازى مع الفكر الصهـيـوني الذي يؤكـد عـداء العـالم لليـهـودي. والـفـكر الصهيوني يعـتـمد على مقولة أنّ العـالم لا يتـغيـر أبداً، وكذلك اليـهـودي. وبكلمـة أخرى فـإنّ الفكرة التي طرحـهـا الصـهـاينة كـأسـاس للدعـايـة ضـد اندمـاج اليـهـود في المجتـمـعـات الأخرى قـد ارتدت على اليـهـودي غـيـر المندمج - الصـهـيـوني- وأحـالتـه إلى إنسـان خـائف ومـرتعش بلا سـبب منطقي.

إنّ النتائج الأخرى المترتبة على هذا الموقف متوقعة. فالوحدة والعزلة والتعاسة التي يعيشها المحاضر العجوز هي تجسيد للعزلة التي يعيشها الكيان الصهيوني. وهذه العزلة هي بداية الموت. إنّ المحاضر العجوز قد أخذ يشكو من التحلل الجسدي ومن أن روائح نتنة قد أخذت تفوح من جسده.

والنتيجة الأخرى هي التحلل العقلي الذي ينشأ عن هذه العزلة العدوانية عن العالم. وباختصار فإنّ الفكر الصهيوني قد خلق كل الظروف التي تخلق شخصية فصامية (شيزوفرينية) وأحاط نفسه بهذه الظروف.

أما النتيجة الأخيرة للفكر الصهيوني فهي الاستغراق في هذا التحلل العقلي من خلال عمليتي الاسقاط والتقمص. أي أن الصهيوني يبرر إحساسه العدواني من خلال تصور أنّ الآخرين هم الذين يحملون هذا الإحساس العدواني ضده، ثم يعود ويستثير عدوانيته الخاصة من خلال تقمصه لعدوانية الآخرين التي خلقها وهمه. وهذه حلقة مفرغة تؤدي حتماً إلى زيادة الروح العدوانية في الشخصية الصهيونية وإلى زيادة خوفها.

ولأن هذه العدوانية هي حلم محبط، فأي سلاح يمكن للصهاينة أن يخترعوه فيدمروا به المعسكر الاشتراكي ويحولوا أهله إلى عبيد؟

إن هذه العدوانية ذاتها تتحول - لهذا السبب - إلى عامل آخر من عوامل التحلل العقلي.

ولكن هل يعني هذا أنّ (عاموس عوز) قد أصبح ضد وجود الكيان الصهيوني ذاته؟

لا يمكن (العاموس عوز) أن يريد ذلك لسببين:

الأول: ان كل ما يطالب به أن تتحول الحركة الصهيونية إلى دولة من دول المجتمع الدولي وأن تتخلص من عقد اليهودي المضطهد.

والثاني أنّ (عاموس عوز) يخفي السبب الأساسي لعدوانية الكيان الصهيوني وعزلته. ان السبب الأساسي ليس هو ذلك الموقف العدائي الذي لا تبرير له الذي يتخذه ذلك الكيان من الدول الاشتراكية، بل هو اقتلاع شعب من وطنه والحلول محله حسب مخطط رسمته الصهيونية بالاشتراك مع الاستعمار الأوروبي التقليدي وبعد ذلك مع الاستعمار الجديد.

الحروب الصليبية

يحاول (عاموس عوز) في هذه الرواية أنْ يضفي على إحدى مقولات الفكر الصهيوني طابعاً علمياً ، فيفسر اضطهاد العالم لليهودي بعوامل اقتصادية أدت إلى هذا الموقف السلوكي المعقد من اليهودي.

فهل نجح (عوز) في ذلك؟

الرواية تتحدث عن إحدى الحملات الصليبيـة التي قامت في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر من اقطاعية تقع بالقرب من مدينة (افينو) الفرنسية. وكانت الحملة تتجه إلى القدس بقيادة الكونت (جولوم).

وأخذت هذه الحملة تسلب وتنهب كل من في طريقها. أمّا اليهود فقد

كانت تبحث عنهم وتقتلهم ثم تستولي على أموالهم.

إنّ تركيز الكاتب على العوامل الاقتصادية يظهر من الجملة الأولى في الرواية:

«بدأ كل ذلك مع انفجار حوادث السخط في القرى. يوماً بعد يوم بدأت نذر الشؤم تظهر في المناطق الأكثر فقراً».

«فبالإضافة إلى الوباء الذي اجتاح الكروم واذبل العنب، والديون الضخمة، كانت هنالك أسباب أكثر الحاحاً دعت الكونت النبيل للقيام بهذه الحملة...».

وهذه الأسباب هي بداية تمرد الفلاحين - الذين زاد استغلالهم ووعيهم - ضد النبلاء. فيروي عن مذكرات (كلود):

«في بداية ربيع عام 1096 لتجسد سيدنا المسيح أخذت خطيئة الصلف ترفع رأسها بين الفلاحين. فقد حدث في اقطاعيتنا عدد من حالات الوقاحة والتمرد مثل تدمير جزء من المحصول الشحيح بدافع الغضب من قلة المحصول، وسرقت خناجر، وفاض النهر، وأحرقت الحظائر، وشوهدت نجوم تهوي، وشاعت ممارسة السحر، كما دبرت مقالب خبيثة. حدث كل هذا في اقطاعيتنا، هذا بالإضافة إلى الجرائم الأخرى التي ارتكبت في الاقطاعيات المجاورة، وحتى تلك الواقعة عبر النهر ... في اقطاعيتنا نفذنا حكم الموت في سبعة فلاحين وأربع ساحرات ...».

وخلال الحملة كانت مظاهر الجفاف والوباء في كل مكان:

«كانت مظاهر الجفاف وآفات الكروم المدمرة ظاهرة للجميع بوضوح. كانت وجوه الفلاحين تحمل تعابير حقد أصم، لم يحسنوا اخفاءه».

أما السبب الذي يختفي وراء اضطهاد اليهود:

«... وهم، أي اليهود، يحتكرون بشكل مطلق هنا الزيت والكتان.

وبتخطيط محكم صارم أخذوا يتوسعون نحو الصوف والشمع، كما راحوا يضعون مجسات لاختبار تجارة العطور والجعة والأخشاب والبهارات».

هذه هي الخلفيات الاقتصادية التي يضعها المؤلف. ولكن هل هذا كل شيء؟ إنّ الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعاني منها أوروبا الاقطاعية لم تكن فقط بسبب الكوارث الطبيعية التي ألمت بالمحصولات، بل كان هنالك أسباب أخرى أكثر أهمية. فهنالك نمو المدن وازدياد أهمية الفئات التجارية، وانجذاب الفلاحين إلى المدن، وغرق النبلاء بالديون الكبيرة التي كانوا يأخذونها من المرابين اليهود. لقد حاول الاقطاعيون الأوروبيون أنْ يحلوا الأزمة بالاستيلاء على أموال المرابين اليهود وبتشديد استغلالهم للفلاحين من ناحية؛ ومن ناحية أخرى حاولوا استثارة الفلاحين ضد المرابين اليهود لأنهم هم أيضاً كانوا يعانون من هؤلاء المرابين.

وفي حين نجح النبلاء في سحق كل مقاومة فلاحية، فشلوا في القضاء على اليهود الذين كانوا يملكون قوة المال وتضامن سكان المدن.

إنّ الشيء المدان هو تحول التناقض بين الإقطاعيين والمرابين اليهود إلى موجة لا سامية ضد كل اليهود، وأغلبية اليهود من الفقراء.

ولكن ذلك كله لم ينقذ الإقطاع الأوروبي من أزمته. فاكتشف الاقطاعيون حلاً أكثر ملاءمة وهو التوجه إلى بلاد العرب ونهب ثرواتها المتكدسة بفضل نشاطها التجاري. ولمدة ما يقرب من قرن كامل اندفعت أوروبا الاقطاعية نحو الشرق في عملية إبادة ونهب رهيبين ضد العرب.

فبماذا خرج (عوز) من هذا كله ؟

لقد ألغى (عاموس عوز) طرفاً أساسياً، بل الطرف الأساسي في الصراع، وهؤلاء هم الفلاحون. وعندما جاءت الحروب الصليبية التي قامت أساساً على غزو العرب ونهب ثرواتهم ألغى (عوز) العرب من

الصـورة كليـة وركـز على التناقض الثـانوي بين الاقطاعـيين الاوروبيين والمرابين اليهود. ولم يكفه ذلك، بل جعل ذلك الصراع المتوازن صراعاً بين مسيحيين مصابين بالجنون والانحراف الخلقي وبين اليهود كضحايا بريئة.

كيف تم ذلك؟

إنّ اليهـود الذين تصف الرواية قـتلهم ثلاثة: البائع الجوال، والأم التي تدافع عن ابنهـا، والعالم. الأول، حيا الحملة، وتمنى لها التوفيق، ومنحـها كل ما يملك من نقود وبضاعة ولكنهم قـتلوه بطريقة وحشية. ومشهد الأم التي تدافع عن طفلها يمثل أقصى صورة للوحشية عندما يتم قتل الطفل والأم. وأمّا العـالم فإنّه يتقدم من الحمـلة بشـجاعة ويقـول لهم: خذوا كل أمـوالنا ولكن أبقـوا على كـتبنا. فـيمـارسـونْ مـعـه وحشـيـة لا مـثـيل لهـا، ويحـرقـون الكتب، ولـكن الرجل يظل حـيـاً. كل أنواع التـعـذيب لا تجـعـله يموت إلى أن يلقوا به إلى النار، ولا نعلم بعد ذلك إن كان قد مات أم لا.

ويقـابل هذا الموت الأسطوري الشـجـاع! مـوت المسـيـحـيين الذي يبـدو وكأنه تفسخ جثث حية. إنّ انتحار الكونت لا يثـير فـينا إلا الضحك. إنّه ينهض ليقتل الزمار، لأنه يعتقد أن يهودياً يختـفي تحت جلده، ثم يكتشف -كما يتضح من إشارات سابقة- أنه هو اليهودي، فيقتل نفسه.

فـهل صـور (عـوز) فـعـلاً الصـراع بين الاقطاعـيين الأوروبيين والمرابين اليهود على حقيقته؟

إنّ (عـوز) يقـتـصـر هنا على تـصـوير نتـائج ذلك الصراع وامـتـداده إلى اليـهـود الآخـرين. ولأنّه لا يدين المرابي اليـهـودي فـهـو يحـاول اقناعـنا بأن

اليهودي على الإطلاق دائماً على حق، وعدوه دائماً على باطل.

إنّ مثل هذه الصورة قد تنفع في كتاب للدعاية، ولكنها ليست صورة للحقيقة، ولا علاقة لها بالفن، كما سنبين فيما بعد.

تظل هناك نقطة أخرى، وهي أنّ المؤلف يجعل المسيحي يدين نفسه بينما يظل موقف اليهودي سليماً. إنّ (كلود) يشكو من اليهودي الذي رفض أنْ يكون مسلياً وهو يحترق.

المسائل الأيديولوجية

ما هي المسائل الأساسية التي تطرحها هذه الروايات الأربع؟

(1) المفهوم الذي تقدمه ليهود الشتات.

(2) الارتباط بالأرض.

(3) المعاناة والعذاب اليهودي.

(4) وجهة نظر كل من التيارين الرئيسيين في الحركة الصهيونية: الوكالة اليهودية، والمنظمات السرية : (الهاغانا؛ ارغون تزفائي ليئومي؛ شتيرن).

(5) صورة العربي وفكرة : أرض بلا شعب وشعب بلا أرض.

(6) رواية (الحب المتأخر) كنفي لجميع الاطروحات السابقة.

يهود الشتات:

إنّ روايتين من هذه الروايات الأربع تدوران حول الزوجة الخائنة. والخيانة هنا لها معنى محدد. أن تهجر الزوجة الأرض، وللأرض مفهوم سوف نشرحه. والأرض هنا هي أرض فلسطين، أو ذلك الجزء من أرض فلسطين الذي يجري استعماره بواسطة العمل اليدوي اليهودي. وفي رواية «في مكان آخر، ربما» تهجر (إيفا) الأرض لتعيش في أوروبا مع رجل من يهود الشتات - أي اليهود الذين يعيشون خارج الكيان الصهيوني. والرواية تشير بوضوح إلى أنّ (إيفا) تتحول إلى تاجرة أجساد وإلى داعرة. إنّ اليهودي في الشتات كان في وضع مبرر قبل أنْ يقوم الكيان الصهيوني. أما الآن، وبعد قيامه، فإن الذي يتخلف عن المجيء فهو ذلك الذي فقد كل شيء ويعود إلى الحياة بين اللايهود.

أما (روث) في رواية «تل المشورة الشريرة» فإنّ جريمتها قد فاقت كل جريمة! فهي أولاً كثيرة الشكوى من الحياة في فلسطين؛ وهي، ثانياً، لا تكف عن الحنين إلى العودة للحياة في (وارسو) بين المسيحيين البولنديين الذين لم يكونوا ودودين قط نحو اليهود؛ وهي، ثالثاً، تختتم ذلك كله بأنْ تهجر زوجها أمام عينيه مع ضابط مسيحي غير يهودي.

والزوجتان تعلنان بصراحة شوقهما إلى الحياة العادية البسيطة، البعيدة عن المجهودات المضنية لغزو الصحراء، ولا ترغبان في مواجهة السكان الأصليين وطردهم من فلسطين ومن شرق الأردن إلى العراق كما كان يطالب (جابتونسكي)، مؤسّس عصابة (ارغون تزفائي ليئومي)، فالعرب هم «رعاع زاعقون يرتدون خرقاً بدائية، ذات زخرفة سقيمة».

باختصار إن هجرة المرأة من «الوطن القومي» مصورة على أساس أنها

سقوط نهائي وفاجع. أمّا الدلالة الفنية لاستعمال أسلوب السخرية في تصوير هذه المواقف فسوف نناقشه فيما بعد.

يؤكد هذا الصورة التي يعرضها الكاتب في رواية «في مكان آخر، ربما» لاثنين من يهود الشتات. إنّ (زخريا) يبدو منذ الوهلة الأولى على النحو التالي:

«وجه الغريب كان مليئاً بالتجاعيد والجلد المتهدل، وكان هنالك الكثير من الجلد، وبدلاً من أن يغطي عظام جمجمته انزلق في طيات فائضة. على شفته العليا شارب صغير ليس له شكل محدد؛ وكان بالإمكان ملاحظة حركة غريبة حول ذلك الشارب وكأن أنفه والاجزاء المحيطة به ترتعش بحياة غامضة، خاصة بها».

إنّ هذا الهجاء الذي يبلغ حد التشنيع يأخذ أبعاده القصوى عندما يتكشف هذا الشكل الكاريكتيري عن كم من الشر والخسة كادا ان يقلبا حياة مستعمرة (مستودات رام) رأساً على عقب.

أما يهودي الشتات الآخر الذي تزوج (إيفا) فهو «مهرج...». كلامه الفاسق «كان يثير تقزز (إيڤا) إلى أقصى حد». سأل (إيڤا) مرة وهو يغمز بعينيه: «ان كنا نمارس علاقات جنسية حرة في المستعمرة».

ما هي الخلفية التي تكمن وراء إدانة يهود الشتات؟

إن علينا أنْ نتذكر تلك الأزمة التي أثارها (بن غوريون) في أحد المؤتمرات الصهيونية عندما طالب باعتبار يهود الشتات غير صهاينة.

وقد شرح (موريس كوهن) بعض أسباب ذلك:

«رغم أنّ معظم زعماء الصهيونية في أمريكا يعتقدون بإخلاص أنه لايوجد تعارض بين صهيونيتهم وأميركيتهم، ولكنهم مخطئون بفداحة... إنّ فلسطين كوطن قومي تعني بالضرورة أنها تقوم على أساس جنس

خاص، وعلى أساس دين قبلي، واعتقاد بأرض خاصة بهذا الجنس؛ بينما يعني الانتماء الأميركي فصل الكنيسة عن الدولة والاختلاط الحر بين الأجناس، ويعني أيضاً أنّ الإنسان حين ينتقل إلى أميركا فإنّه يستطيع أنْ يغير مكان سكناه ولغته، ويستطيع في الوقت ذاته أنْ يطور عملية الحضارة».

ويقول الحاخام (ابراهام اسحق كوك):

«لا يستطيع اليهودي أن يكون مخلصاً وصادقاً في أفكاره وعواطفه وخيالاته في أرض الشتات كما يكون في أرض إسرائيل. فالوحي المقدس، بأي درجة كان، يكون نقياً فقط في أرض إسرائيل، بينما يكون خارجها مشوشاً، ملوثاً، غير نقي. وعلى أي حال، فكلما ازداد تعلق الشخص بأرض إسرائيل زادت أفكاره طهارة لأنها حينئذ تعيش في هواء إسرائيل الذي يحيي كل من يشتاق إلى الأرض».

ويقول أيضاً:

«ليس لليهودية في أرض الشتات وجود حقيقي إلا على اعتبار أنها تحيا بقوة رؤيا مستقبلنا وبذكرى مجد ماضينا. ولكن يجب أنْ ندرك أنّ هنالك حدوداً لقوة هذه الرؤيا لتحمل أعباء الحياة ولتوجيه حياة الشعب، ويبدو أنّ هذه القوة قد استنفدت الآن طاقتها، وأصبح يهود الشتات يتحللون بشكل مخيف، ولا أمل لهم إلا بإعادة زرع أنفسهم والاعتماد على ينبوع الحياة الحقيقي المقدس الموجود في أرض إسرائيل فقط».

إنّنا نستطيع أنْ نأتي بمزيد من الاستشهادات ولكننا نكتفي بهذا القدر.

ولكن لماذا هذا الإلحاح على إدانة يهود الشتات؟ وما الذي يعنيه الحاخام (كوك) بقوله: إنّ يهود الشتات أصبحوا يتحللون بشكل مخيف؟

ذلك لأنّ يهودي الشتات مهدد بالاندماج. إنّ الفكر الصهيوني يدرك أنّ اليهود قد هاجروا إلى فلسطين في حالتين فقط: عندما يكون هنالك اضطهاد ضدهم، وعندما تغلق في الوقت ذاته أبواب أميركا وأوروبا في وجوههم.

وهل يمكن ضمان هذين العنصرين إلى الأبد؟

إنّ رعب الصهيونية هو أنْ يلقى اليهود معاملة حسنة حيث يعيشون. ولهذا السبب تعلن الصهيونية حرباً شعواء على سياسة التنوير التي تهدف إلى الدمج. يقول الداعية الصهيوني (ليلينبوم):

«لا تصغوا لمن يقول بأنّه يجب علينا أنْ نندمج في باريس أو برلين أو سانت بترسبرغ أو غيرها. لا تصغوا للمتنورين بيننا الذين يؤمنون بالاندماج...».

ويقول الزعيم الصهيوني (بنسكر): «تحرير اليهود مدنياً وسياسياً لا يكفي لرفع قيمتهم بين الناس. إنّ الطريق الصحيح والوحيد لإصلاح الوضع هو خلق (قومية) يهودية مؤلفة من شعب يعيش على أرض يملكها. إنه تحرر اليهود الذاتي كأمة بين الأمم تملك وطناً خاصاً بها».

«يجب ألا نقنع بأنّ الإنسانية وحركة التنوير سيكونان دواءً أساسياً لشفاء شعبنا».

أمّا (بن غوريون) فقد عبر عن ذلك بصراحة أكبر حين قال: إنّه لو كان يملك الإمكانيات لبعث بالشباب اليهود المتحمس وجعلهم يضطهدون يهود الشتات لإرغامهم على الهجرة إلى فلسطين. «ولأمرت هؤلاء الشباب بالتظاهر بمعاداة اليهودية، وملاحقة اليهود بالأساليب اللاسامية السمجة تحت شعارات مثل: (أيها اليهود القذرون)؛ (أيها اليهود ارحلوا إلى فلسطين!) وأؤكد لكم بأنّ نتائج الهجرة... قد تتخطى عشرات آلاف المرات النتائج التي يحصل عليها دعاتنا، الذين يكيلون المواعظ لأناس

صم منذ عشر سنوات». ويعلن (بن غوريون) ذلك لأنّه يرى أنّ اليهود في كثير من البلدان قد غرقوا «في رضى عن النفس آثم».

ولهذا السبب رحب زعماء الصهيونية بقيام النازية لأنها تؤشر نهاية الديموقراطية البرلمانية -كما يقول الزعيم الصهيوني برنتز- «والانتقال من وحدة الإنسانية لعهد التنوير إلى وحدة الأمة، الذي يحتوي حالياً في داخله الانتقال من الرؤية الإنسانية الشاملة إلى رؤية الأمة ككيان منفصل. ان هذا قد وضع المسألة اليهودية في ضوء جديد؛ حيث انتهى عهد الاندماج الذي تميز به عهد التنوير وأصبح من الممكن الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعرق -الجنس- اليهودي».

إنّ التقارب الشديد بين النظرية النازية وبين الصهيونية قد أدى إلى تعاون مثمر استمر حتى نهاية الحرب الثانية. ومن أراد أن يعرف معلومات تفصيلية عن هذا التعاون فليرجع إلى كتاب (حنة ارنت) «ايخمان في القدس»، وهي كاتبة يهودية أمريكية، وكتاب «احذروا الصهيونية» للكاتب السوفييتي (يوري إيفانوف). لقد أدى هذا التعاون إلى إرسال الآلاف من الشبان المدربين إلى فلسطين ـ المدربين على الزراعة المتطورة والحرب ـ ولكنه أدى أيضاً إلى قتل ثلاثة ملايين من اليهود كان يمكن إنقاذهم لولا هذا التعاون.

هذه هي بعض المعطيات الايديولوجية لموقف الفكر الصهيوني من يهود الشتات. وهنالك أيضاً اعتبار عملي يذكره الكاتب الصهيوني الأميركي (صول بيلو) الحائز على جائزة نوبل في الكتاب الذي ألفه عن زيارته للقدس. يقول: إنّ «إسرائيل» تعاني مأزقاً بسبب نقص الهجرة إليها، وبسبب الهجرة المعاكسة التي يقول إنها تزيد على ربع مليون (بعض المصادر تقول إنها تزيد على نصف مليون). إنّ (إسرائيل)، يقول (بيلو) ستجد نفسها أقلية بعد فترة قصيرة بسبب التزايد الكبير للسكان العرب.

مفهوم الأرض:

هنالك مسألة تستوقف النظر في روايتي (عاموس عوز) «الحب المتأخر» و «في مكان آخر، ربما»، وهي الصورة القبيحة والخالية من الإنسانية التي يرسمها لمدينة تل أبيب. ففي رواية «الحب المتأخر» يعيش بطلها العجوز في وحدة رهيبة تفتقد كل تعاطف إنساني. يقول محدثاً نفسه: «أليس شيئاً مخيفاً، مخيفاً وبشعاً ومذلاً، أنْ أعيش سنين طويلة جداً من دون أن ألمس أحداً أو يلمسني أحد؟!».

يحدث نفسه بهذا أمام سيدة كان يعرفها منذ ثلاثين سنة، وتقول هي:

«والعصافير (شراكا). حتى العصافير؛ إنه لشيء مرعب ومخيف: موت العصافير. بعد سنة أو اثنتين لن يكون هنالك عصفور حي واحد في تل أبيب كلها. أحياناً (شراكا) أقف وحيدة ساعة المساء وأشاهد العصافير تحاول باستماتة أن تهرب بعيداً. كأن الكائن يستطيع أن يهرب من السم الذي في داخله». «أتذكر (تل أبيب) كيف كانت منذ ثلاثين، خمسة وثلاثين عاماً مضت: بلدة صغيرة، بلدة ساطعة بالضوء، يداعبها النسيم...».

أما في رواية «في مكان آخر، ربما» فلقد سبق وذكرنا الحادثة التي وقعت لـ(روفن) في تل أبيب وأدت إلى إصابته بأزمة قلبية.

كيف نوفق بين الحاح الكاتب على وجوب أن يعيش اليهودي في فلسطين وبين هذه الإدانة لمدينة كتل أبيب؟

إنّ مفهوم الأرض في عدد كبير من التيارات الصهيونية يعني الأرض التي تتحدد علاقة الإنسان بها بالعمل اليدوي.

يقول الحاخام (زفي هيرش كاليشر) :

«ستكون الحالة مختلفة لو تحمسنا للعمل بأيدينا في الأرض. سيبارك

الله عملنا بكل تأكيد، وهكذا فسوف لا نحتاج لاستيراد القمح من مصر أو من البلاد المجاورة لأن محصولنا سيكون كثيراً. سيتمكن يهود الأرض المقدسة من الاستغناء عن مساعدة يهود الشتات حالما يبدأون بأكل إنتاجهم».

«هنالك فائدة أخرى للاستيطان الزراعي، ألا وهي فائدة تطبيق الوصاية الدينية المتعلقة بالعمل في تربة الأرض المقدسة...».

« لكن علاوة على هذا كله سيؤدي العمل الزراعي اليهودي للوصول إلى الخلاص، الخلاص الذي وعد به المسيح المنتظر...».

ويقول الفيلسوف الصهيوني (هارون ديفد غوردن):

«وعندما تعود إلى الطبيعة، أيها الإنسان، ستتفتح عيونك في ذلك اليوم وتنظر في وجه الطبيعة، وفي مرآتها سترى صورتك، عندئذ ستعرف أنك إنما رجعت إلى نفسك، لأنك عندما اختبأت من الطبيعة فقد كنت مختبئاً من نفسك».

ويقول:

« إنّ مهمتنا هي بعث أمة... من هنا فصاعداً يجب أن يكون مثالنا الأعلى العمل اليدوي... إن ثقافتنا المستقبلة... يجب أن تنبثق من الأرض الزراعية ومن العمل بها... ووراء ذلك كله يكمن تجدد الحياة...».

ويقول الفيلسوف الصهيوني (مارتن بوبر) في رده على (المهاتما غاندي)، الذي قال بأن فلسطين ملك للعرب ولذلك فإن من «الخطأ واللاإنسانية أن يتم فرض اليهود على العرب»، بأن الله يمنح الأرض للفاتح وينتظر ماذا سوف يفعل بها. إن الأرض تصبح ملكاً للإنسان عندما يخصبها « لأنني أؤمن بتزاوج الإنسان (آدم) والأرض (آدمة)».

وبعض التيارات الصهيونية تضع الأرض في الإطار الديني، ولكن

غالبية التيارات تضعها في إطار (الوطن القومي) منطلقة من معطيين:

الأول: هو أنها أرض الأجداد التي استعادتها. فيرى (ميخابرديشفسكي) أنه يجب إخضاع الدين للشعب «إسرائيل سابقة على التوراة». ويقول إنّ على الصهيونية أن ترسي تقاليد مستمدة من العهد السابق على مجيء موسى: « فهنالك زمن يكون فيه الرجال والأمم يعيشون بواسطة السيف، بالعنف وبقوة الذراع، بالجسارة الحيوية. هذا زمن التوتر والحياة في معناها الجوهري... ». ويرى (تشيرينشوفسكي) أنه يجب استعادة الروح العبرية التي اجتاحت (كنعان) بحد السيف « إن تأوهات القتلى جميلة في آذاننا كالموسيقى».

والثاني: هو أن الأرض لمن يستولي عليها. فلسطين كانت أرضاً جرداء تحت حكم العرب، وحين جاء اليهود لم يستطيعوا حمايتها. اليهود عمروها واستولوا عليها بالقوة فهي من حقهم، وليس للعرب إلا القبول بذلك.

وهنالك المقولة الثالثة التي سنتحدث عنها فيما بعد، وهي أن فلسطين أرض بلا شعب. من دون هذا الفهم للأرض يصعب كثيراً فهم روايات (عاموس عوز).

مفهوم العذاب اليهودي:

مفهوم العذاب اليهودي هو الموضوع الأساسي الذي تشترك فيه الروايات الأربع. إن جريمة (إيفا) في رواية «في مكان آخر، ربما» و(روث) في رواية «تل المشورة الشريرة» تكمن أساساً في أنهما رفضتا العذاب التاريخي لليهود وقررتا الاندماج في مجتمع اللايهود، كل على طريقتها. أما في رواية «الحب المتأخر» فإن هذا العذاب التاريخي ينمو حتى يحجب كل ما عداه ويصبح هوساً. وفي رواية «الحملات الصليبية»

يصبح البحث عن اليهودي ونهبه وقتله العمل الأساسي للحملة.

ويمكن تلخيص فكرة العذاب اليهودي بالتالي: ان العالم اللايهودي يحمل في داخله كرها لليهودي ورغبة في إيذائه، على مدى التاريخ! يكاد هذا يكون غريزة في اللايهودي، أي أنه لا يخضع لمنطق الظروف الاجتماعية والتاريخية!!

ويأخذ عذاب اليهودي أبعاده إذا أضفنا إلى المعطيات السابقة المعطيات التالية:

أ – اليهودي إنسان متفوق عقلياً وأخلاقياً وله رسالة. فعذابه ليس كعذاب أي إنسان آخر. يرى (أحاد هاعام) في مقال له بعنوان «اليهودية ونيتشه» ان اليهود أصبحوا أمة متفوقة على كل الأمم من خلال تماسكها الأخلاقي ، ويتفق مع (نيتشه) في أن الهدف الأخلاقي الأعلى ليس تقدم الجنس البشري بمجموعه بل هو خلق النمط الإنساني الكامل بين الصفوة. ويرى أن ايجاد وضع جيد لليهودي هو هدف بذاته، وقد وجد العالم لاتاحة المجال لليهود لأن يحققوا ذلك. ويقول: لقد اعتبر اليهود دائماً «كونهم شعباً مختاراً هدفاً بذاته، ويجب إخضاع كل شيء له...».

ويقول:

« يجب أن توجد أمة تجعلها خصائصها الكامنة فيها أكثر صلاحية من غيرها للتطور الأخلاقي، ويتحكم في مشروع حياتهم قانون أخلاقي متفوق على النمط الشائع من الاخلاقية، ويمكن لهذا القانون أن يخلق الوضع المثالي لنشوء السوبرمان الذي نريده. إن هذه الفكرة تفتح أفقاً واسعاً حيث تبرز اليهودية في ضوء جديد ورائع ...».

إنّ أمثال هذه الأفكار أصبحت من أساسيات الفكر الصهيوني.

أما بشأن التفوق العقلي اليهودي فيكفي أن نشير إلى ما ذكره (مناحم بيغن) في كتابه «الثورة» من أنه كان واثقاً أنه في المواجهة بين اليهود والإنكليز في فلسطين سوف ينتصر اليهود لأنهم متفوقون عقلياً.

ب - جسد اليهودي مقدس، بخلاف جسد اللايهودي. في كتاب (بيغن) «الثورة» يقول إن السلطات البريطانية أعلنت أنها ستجلد شابين يهوديين، هما عضوان في منظمة (الارغون)، خمس عشرة جلدة لكل منهما. فأعلن (بيغن) باسم منظمته أنه لا يسمح بإهانة الجسد الإنساني، وأنه إذا تم الجلد فسوف يرد على ذلك بعنف.

وإلى هنا وكلام (بيغن) معقول؛ إن إهانة الجسد الإنساني بالتعذيب هو عمل همجي وخسيس. ولكن (بيغن) يضيف أن اليهودي ليس إيرانياً ولا من قبائل الزولو حتى يهان جسدياً. وإذا أضفنا إلى هذا، التعذيب الرهيب الذي مارسته حكومة (بيغن) ضد المناضلين العرب لتبين لنا المعنى الحقيقي لكلمات (بيغن): «إن الجسد الإنساني الذي يجب ألا يعذب هو الجسد اليهودي فقط».

جـ - إن اليهود هم شعب الله المختار، وعذابهم وحدهم هو الذي يجب أن يكون موضوع الاحتجاج. لقد مات إبان الحرب العالمية الثانية ما يقارب مئة مليون إنسان. ولكن الفلاسفة اليهود الأربعة: (اجناز مايباوم)، (اميل فكنهايم) و(روبنشتاين) و(اليزر بيركوفتس) يطرحون السؤال التالي: أين كان الله عندما كان اليهود في معتقل (اوشفتز) النازي؟

يرى (روبنشتاين) أن الله قد غاب. ولهذا لم يفعل شيئاً لمساعدة اليهود.

أما (فكنهايم) فيقول إنه يجب أن يرفض كل تفسير لما حدث في (اوشفتز). علينا أن نؤمن فقط.

ويرى (مايباوم) أن اليهود ماتوا من أجل ذنوب البشر الآخرين، وان

لله في ذلك حكمة.

أما (بيركوفتس) فيرى أن الله كان مختبئاً في فترة العذاب اليهودي في (اوشفتز). والله يختبئ حتى يتيح للإنسان حرية الاختيار. وقد عاد الله إلى الظهور حين قامت دولة إسرائيل وحققت انتصاراتها: «لقد رأينا ابتسامة على وجه الله. وهذا فيه الكفاية».

إننا نلاحظ أن الله هنا في وضع إله قبلي. فالمسألة المطروحة هي: لماذا سمح بقتل اليهود؟ أما قتل خمسة وتسعين مليوناً من الشعوب الأخرى فهي ليست قضية تستحق أن ينشغل الله بها. يؤكد ذلك أن الله ابتسم لقيام إسرائيل وانتصاراتها... ولكن يجب أن يلاحظ أن الله كان يبتسم بينما كان الشعب الفلسطيني يقتلع من أرضه، وبينما كان أطفال دير ياسين يذبحون. وسبب ذلك أن الله هو إله قبائل إسرائيل وليس إله العرب.

كما نلاحظ هنا أن قيام الكيان الصهيوني قد اعتبر منحة لليهود -كما يقول الصهاينة- مقابل عذابهم في (اوشفتز)، وهو الثمن الذي يجب أن تدفعه البشرية مقابل العذاب اليهودي.

إن الفكرة الصهيونية التي تعتبر أن الإنسان الذي يستحق الحياة هو اليهودي فقط ليست مجرد فكرة فارغة ولكنها سلوك عملي أيضاً.

ففي عام 1944 أخذ الجيش السوفييتي يحقق الانتصارات في الجبهة الشرقية، وكان الجيش الألماني بحاجة إلى عشرات الآلاف من سيارات شحن الجنود لتنقلهم إلى هناك. فتقدم (ايخمان) بطلب إلى الزعماء الصهاينة بأن يرسلوا عشرة آلاف شاحنة إلى الجيش الألماني مقابل الإفراج عن بعض اليهود وإرسالهم إلى فلسطين. فوافق الزعماء الصهاينة برئاسة (وايزمان) على ذلك فوراً. حدث هذا رغم أن هزيمة الجيش السوفييتي كانت تعني افناء ما يزيد على أربعة ملايين يهودي. إن الصحفي

الأميركي (موريس آرنست) كان على حق عندما قال: «إن مسألة الدم البشري هي أقل ما يقلق الصهيونيين، خصوصاً إذا كان الدم المسفوك ليس دمهم».

من هنا تزول الدهشة عندما نقرأ رواية (عاموس عوز) عن الحروب الصليبية فنجد أنها مصورة وكأنها كانت موجهة ضد اليهود فقط. إن اليهود قد عانوا نتيجة لهذه الحملات الصليبية، ولكن ضحيتها الأساسية كانت جماهير العرب والمسلمين، بل إن المسلمين أنفسهم قد شاركوا بدور فعال في حماية اليهود من هجوم الصليبيين. إن هذه العملية الانتقائية التي قام بها (عاموس عوز) لها دلالة. فخلال الرواية كلها لا نجد كلمة واحدة عن العرب، بل ان رجال الحملة لا يتحدثون إلا عن كرههم لليهود.

إن التركيز على العذاب اليهودي قد كانت له آثار بالغة الأهمية على تركيب الإنسان الصهيوني. إن الابتزاز الصهيوني بالعذاب اليهودي قد حقق بعض النجاح، ولكن آثاره المدمرة قد أصابت إنسانية الإنسان الصهيوني في الصميم؛ إذ فقد حساسيته للألم، لأنه فقد حسه بالإنسان.

وسوف أنقل ما ذكره الكاتب السوفييتي يوري ايفانوف في كتابه «احذروا الصهيونية» عن تجربة قام بها عالم النفس الأميركي (شامارين) في داخل الكيان الصهيوني؛ إذ وزع 1066 استمارة على الطلبة عن سفر (يشوع بن نون) «لانه يحتل مكاناً خاصاً في التعليم الإسرائيلي» كما يقول (شامارين). لقد سأل الأطفال عن رأيهم في أن (يشوع بن نون) دخل أريحا ومدينتين اخريين فقتلوا كل رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والحمير. ويمكن تلخيص الإجابات التي تراوحت بين 66 و 95 في المئة في كل مدرسة أو مستعمرة بما يلي:

«لقد كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من أجل الإسرائيليين. ولذلك فقد تصرف الإسرائيليون تصرفاً حسناً باحتلالهم المدن وقتلهم

سكانها. وليس من المرغوب فيه أن يكون في إسرائيل عنصر غريب. إن الناس من مختلف الأديان يمكن أن يؤثروا تأثيراً لا حاجة إليه على الإسرائيليين».

وكتبت فتاة من مستعمرة (معوتشد): «لقد تصرف (يشوع بن نون) تصرفاً حسناً بقتله جميع الناس في أريحا، لأنه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ولم يكن لديه وقت لإضاعته مع الأسرى». ومثال آخر هو عندما عرض فلم في فلسطين المحتلة عن قصة (ستيفان زفايغ) «لعبة الملوك». والقصة تحكي عن استاذ اعتقله النازيون وقرروا تحطيم إرادته بواسطة عزله كلياً عن العالم الخارجي. ويصف الكاتب (اندريه جيرومسكي) رد فعل المشاهدين اليهود عندما بلغ الفلم قمته المأساوية وأخذت معالم الجنون تظهر على الأستاذ، فيتذكر أن الجمهور في البلدان الأخرى كان يقابل هذا المشهد بالصمت، وربما بكى بعض المشاهدين. أما عن الجمهور الصهيوني فيقول جيرومسكي: «...إنني لم اسمع في حياتي قط في صالة عرض، حتى في أفضل الروايات الهزلية، مثل تلك القهقهة التي سمعتها أثناء عرض مشهد الأستاذ وهو على عتبة الجنون. كان الجمهور يحمحم ويزأر ويخبط الأرض بأقدامه. والجدير بالملاحظة أن هذا حدث قبل أسبوع من تجديد دعوى (ايخمان). ففي مثل هذه الحالات لا تنفع الأوامر، ولا الحظر، وذلك لأنه ليس باستطاعة أحد أن يأمر الفهم والحس».

التيار المهادن والحركة السرية:

الواقع أن الإشارة الواردة في رواية «تل المشورة الشريرة» التي تجعل من (موشيه شرتوك) رجلاً ساذجاً يمتلىء بالفرح لأن ضابطاً بريطانياً قد ألقى نكتة عن الجامعة العربية، في حين تجعل الحركة السرية التي تمثلها عصابتا (الارغون) و(شتيرن) الأمل الذي يسترد به اليهودي كرامته قد

تحمل دلالة. فالتيار الصهيوني الذي كان يقوده بن غوريون كان يهادن البريطانيين أحياناً ليحصل على بعض المكاسب؛ في حين كان تيار الحركة السرية ينهج سبيل الحرب الصريحة ضد بريطانيا ويدين تيار (بن غوريون).

ولكن هذه الإشارة وحدها لا تكفي للحكم على رأي المؤلف، وإن كانت تعكس وجود هذين التيارين.

صورة العربي:

بعد حرب عام 1967 ذكر (موشيه دايان) في إحدى خطبه بعبارات مثل (المدافع بدلاً من الزبدة) و(خلق إسرائيل الكبرى) و (المدى الحيوي) الخ. فعلق (عاموس عوز) على ذلك في صحيفة دافار في 22 آب 1967 قائلا: «لماذا لم يصعق (موشيه دايان) عندما تفوه بكلماته التي تثير الذكريات المرعبة؟ من المؤكد أن (المدى الحيوي) لا يعني شيئاً آخر غير طلب طرد شعب لكي تستوطن مكانه أمة (أكثر حضارة). لماذا استعمل (موشيه دايان) ضدنا، نفس الاصطلاح الذي تفوه به النازيون وأصبح مرادفاً للبذاءة بالنسبة لجميع شعوب العالم المتعشقة للحرية؟».

وهذا التعليق غريب. لأن (دايان) في خطبته منسجم مع الفكر الصهيوني، في حين أن قول (عوز) نفسه هو المتناقض مع الفكر الصهيوني ومع أدبه ذاته. كما ان اعتبار هذا التشابه الذي نشأ فجأة بين النازية وبين كلمات (دايان) شيئاً غير متوقع هو أمر شديد الغرابة. فالمقولات الأساسية للفكر الصهيوني هي نفس مقولات الفكر النازي مطبقة على اليهود بدلاً من الألمان. كما أن التعاون السياسي والعسكري بين أجهزة المخابرات النازية والصهيونية أصبح معروفاً ولا يحتاج إلى اكتشاف. وحتى التعاون الاقتصادي والتدريب المهني بين الاثنين كان جزءاً من استراتيجية عسكرية منسجمة.

فما معنى دهشة (عاموس عوز) هذه؟

دعونا نراجع أفكار (عوز) في رواياته عن العلاقة الصوفية بالأرض، وعن الموقف من العربي، لنرى مدى انسجام فكر (عوز) مع الفلسفة النازية. ولقد تحدثنا منذ قليل عن مفهوم الأرض، فدعونا الآن نتحدث عن صورة العربي في روايات (عاموس عوز).

إن الفكرة الأساسية نحو العربي عند الكاتب تندرج تحت المقولات التالية:

أ - فلسطين أرض بلا شعب، واليهود شعب بلا أرض قد وجد أرضه.

ب - من حق اليهود «كأمة متحضرة» أن تحل مكان العربي لأنه ينتسب إلى أمة متخلفة.

جـ - العربي يهدد الكيان الصهيوني انطلاقاً من أفكار بدائية، وبلا سبب ودون منطق.

د - ضرورة الاستعداد لدحر العربي في عقر داره.

هل قال (موشيه دايان) شيئاً غير هذا؟

لنعد إلى المقولات السالفة:

أرض بلا شعب: في حديث أدلت به (جولدا مائير) لصحيفة الصندي تايمز في عام 1969 قالت:

« لا يوجد شيء اسمه الفلسطينيون... ليست المسألة أنه كان هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعتبر نفسه شعباً فلسطينياً فأتينا نحن وطردناه واستولينا على أرضه. الفلسطينيون لم يوجدوا قط».

ويحاول الكاتب الصهيوني (صول بيلو) في تعليقه على عبارات (مائير) أن يتحدث بأسلوب علمي، وليس بأسلوب (جابوتنسكي) حين

قال: (العرب لا حق لهم في فلسطين لأن ملابسهم غير أنيقة وأصواتهم مرتفعة)، فيقول (بيلو) إن (مائير) على حق.

ففي بداية القرن لم تكن البورجوازية الفلسطينية قد نشأت، وكأن نشوء البورجوازية هو نشوء الشعب وليس مرحلة من مراحل تطوره!

إنه نفس منطق الاستعمار التقليدي.

فماذا يقول (عوز) عن هذه المسألة؟

لقد سبق واقتبسنا ما قاله في رواية «في مكان آخر، ربما»:

« لمدة ألف عام كان هذا المكان قفراً... لم يتبق منهم -أي العرب- أثر عدا خرائب متناثرة، أخذت أطلالها تشحب وتختفي تحت التراب الذي جاءوا منه...».

كما أنه في رواية «تل المشورة الشريرة» تحمل رحلة (هانز) إلى منابع نهر الأردن، وتذكر هذه الرحلة في اللحظة التي تأكد فيها من ضياع كل شيء في حياته، دلالة رمزية. إنه يتذكر هذه الرحلة بعد اللحظة النفسية التالية:

«وقف أبي وحيداً بجوار النافورة المهجورة التي لا يزال الماء والضوء يندفعان منها. استطاع الآن أن يحدد مكان سمكة ذهبية في الحوض المرمري. كان يشعر بالبرد، وبالإرهاق الشديد. لا بد أن أمه وأخواته قد قتلن في (سيليزيا) أو غيرها. مزرعة الماشية في الجليل لن تتحقق، والدراسة العلمية أو القصيدة لن تكتب. ويجب إرسال (منيل) إلى مدرسة داخلية في إحدى المستعمرات. سوف يكرهه بسبب ذلك. لقد مات الدكتور (روبين)، وسوف يموت أيضاً (بوبر) و(عجنون). وإذا قامت دولة عبرية في يوم ما لن أكون المسؤول عن دائرة الطب البيطري. لو أن التنظيمات السرية تأتي في هذه الدقيقة وتنسف المكان كله حتى يرتفع

إلى أعالي السماء ...».

ثم يغمض الأب عينيه ويتذكر فجأة تلك الرحلة إلى منابع نهر الأردن. ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن منابع نهر الأردن ليست في فلسطين، ولكن الكاتب يقول إنها في الطرف البعيد من البلاد. ولا استطيع أن أجزم إذا كان الكاتب يشير هنا إلى أن مناطق الحصباني واللداني وبانياس هي أجزاء من الكيان الصهيوني المقبل أم لا، ولكن من المهم أن الأب يستعيد ذاته من خلال صورة الأرض أمام عينيه، ومن خلال العمل الإرهابي اليهودي الموجه إلى البريطانيين. إن هنالك عمقاً لكل اهتماماته التي يعيد صياغتها وتوجيهها، وهو الأرض والشعب الذي عاد اليها. أما العربي في هذه الرواية فهو يتواجد في إطار كاريكتيري: الأعيان الفلسطينيون بالسلاسل الذهبية التي تمتد عبر كروشهم، وجوزيت البشاري التي تعجز عن فهم عبارة بسيطة مثل أن هنالك شخصاً يشبه المندوب السامي ولكنه يكرهه، والقرويون العرب الذين كانوا يقدمون عصير الرمان للطبيب البيطري، ويقبلون يده أحياناً. وتواجد العرب هنا يشبه تواجدهم في رواية «في مكان آخر، ربما» : ظاهرة طبيعية همجية مهددة كجماعة متلصصة تقتل أناساً أبرياء في أرض ليست لها.

كما تحمل هذه الروايات فكرة أن اليهود جاءوا ليعمروا الأرض فقابلهم العرب بالسيف الذي ارتد عليهم وجعلهم يعودون إلى التراب الذي جاءوا منه. أي أن التخلف العربي كان عليه أن يخضع للتقدم اليهودي وينحني له. وإذا قاوم احتلال أرضه، فهو يفعل ذلك دون سبب ودون منطق. وقد سبق وأن أوردنا النص من الرواية الذي يعبر عن هذه الفكرة. وكذلك أوردنا النصوص التي تشير إلى أن العرب سوف يواجهون بالسيف إلى أن يكفوا.

وبغض النظر عن رفضنا لهذا المنطق فهو يحمل تناقضاً لا نستطيع تجاوزه:

- الشعب العربي الفلسطيني لم يوجد قط، ولكنه موجود وهو يعادي اليهود الطيبين دون سبب أو منطق!؟

- الشعب الفلسطيني طرد من أرضه بحد السيف، ولكنه لم يوجد قط فوق هذه الأرض!؟

- اليهودي يريد أن يتعايش مع العربي الفلسطيني، ويمد اليهودي يد الأخوة فيرفض الفلسطيني... ولكن هذا الفلسطيني لا وجود له. لقد مر عبر هذه الأرض وعاد إلى الغبار الذي جاء منه!؟

- يجب أن يستعد اليهودي لمنع العربي من العودة إلى أرضه، لأنها ليست أرضه ولم يتواجد عليها.

والغريب في المسألة أن هنالك نقاشاً واسعاً داخل الكيان الصهيوني حول: هل يوجد عرب في فلسطين، أو هل وجد عرب على أرض فلسطين أم لا؟ ويعتبر الذين يقولون إن هنالك عرباً فلسطينيين أناساً متطرفين ومعادين للكيان، وتشن ضدهم الحملات. بل ان حكومة (بيغن) قد منعت مسلسلة تلفزيونية بعنوان (خربة خزعة) عن قصة (ليزهار) تقول: إن جيش الدفاع الإسرائيلي قد أجلى العرب عن إحدى القرى العربية. وذلك باعتبار أن هذا سوف يؤدي إلى القول بأنه كان هنالك عرب في فلسطين.

رواية (الحب المتأخر): ماذا يجسد هذا الرجل العجوز الذي أضاع عمره في قضية لم يعد أحد يهتم بها أو يلتفت إليها؟ لقد كان من الممكن لهذا الرجل أن يعيش حياة طبيعية ويكون له زوجة وأطفال وحياة فيها هموم الإنسان العادي وأفراحه، ولكنه ضحى بحياته من أجل قضية مضحكة: الروس الذين يشربون الشاي الثقيل طيلة الليل ليخططوا لإبادة اليهود في العالم كله. ويبدو أن هذا الرجل لم يلتفت إلى قضية بسيطة غاية البساطة: وهي أنه وهو يتحدث عن ثورة أكتوبر ويكشف

خفاياها نسي أن يتذكر حقيقة أولية، وهي أن هذه الثورة ساعدت على انقاذ أربعة ملايين يهودي، وذلك بتهجيرهم من المناطق التي احتلها الألمان إلى مناطق أخرى.

إذن، ماذا يجسد هذا الرجل في المضي بقضيته الخاسرة والمضحكة؟

لقد ذكرنا منذ قليل أن الابتزاز الصهيوني بقضية العذاب اليهودي قد انتج انعدام الحساسية لآلام الآخرين عند الفرد الصهيوني. وفي هذه الرواية يصبح المبتز ضحية لابتزازه. إنه لا يمكن لمجموعة من الناس أن ينهكوا أنفسهم في الدفاع عن أكذوبة من دون أنْ يصدقوها، أو يصدقها بعضهم على الأقل. ويكفي الصهيوني أن يصدق مسألة أن العالم كله يكره اليهود حتى يصبح بين إحدى حالتين: إما أن ينتحر يأساً أو يصاب بالجنون. فأية فرصة تبقى أمام أية مجموعة من الناس إذا كان العالم كله ضدها؟

إنّ هذه الرواية هي صورة للعبة التي ترتد على صاحبها.

إنّ هذا الوضع يمكن تطبيقه على كل المقولات الصهيونية. فأي نتيجة يمكن أن يؤدي إليها القول بأن الشعب العربي الفلسطيني لم يوجد قط؟ إنه لا يمكن تصديق هذه المقولة ولا بتفسير جنوني آخر: إن هنالك مؤامرة عربية جاءت بثلاثة ملايين ونصف المليون إنسان وادعت أنهم فلسطينيون. وإلا فأي تفسير آخر لتواجد ثلاثة ملايين ونصف المليون من المفروض أنهم غير موجودين؟!

إنّ الفكر الصهيوني سوف يظل يدور في حلقة مفرغة: اليهودي المتفوق أخلاقياً! يقتلع شعباً من جذوره بالمذابح والإرهاب والتعذيب ويجب ألا يثير هذا أي احتجاج عالمي.

لماذا؟ لأن اليهود عذبتهم دولة أخرى وأبادت الكثيرين منهم. وما فعلته هذه الدولة يجب أن يثير سخط العالم كله. أي أن يصبح اليهودي

نازياً فهو شيء يجب قبوله، لأن النازيين قتلوا اليهود. فكيف يمكن استعمال معيارين متناقضين لقضية واحدة؟

والمقولة الصهيونية التي تقول إن لها حقاً في الاستيلاء على أرض شعب آخر لأنها أكثر «تحضراً منه». فلماذا إذن البكاء أمام حائط المبكى لأن دولة قوية في (بابل) فعلت ذلك منذ آلاف السنين؟

كيف يمكن لإنسان أن يدعي امتلاك قواه العقلية كاملة، إذا كانت الفلسفة التي يؤمن بها تلغي الواقع العيني لتحل محله واقعاً متوهماً؟!

ومن هنا نرى أن (شراكا) قد وقع ضحية لعبة أراد أن يلعبها بإخلاص، فوصل إلى الجنون. إن نهايته هي الحرمان من كل حنان إنساني، وتوقع الرعب الذي سوف ينقض بين لحظة وأخرى ليفني كل يهودي في فلسطين. ومن هناك سوف يتجه إلى الأماكن الأخرى التي يوجد فيها يهود.

إن عزاءه الوحيد هو مصدر جنونه:

«اكتسبت عادة أخرى: في الأماسي التي لا أسافر فيها أتمدد على سريري وأقرأ أعمال الصهاينة الأوائل حتى الواحدة أو الثانية صباحاً. إن آباء الحركة العمالية اليهودية كانوا رجالاً عظاماً. استطيع أن أندمج في قراءة ما كتبوه لساعات طويلة. لو كنا نستطيع أن نلتزم برؤاهم، كما أرى، لاستطعنا أن نتجنب بعض الكوارث التي تترصدنا. إن أمامنا تحذيراً من الآباء المؤسسين للحركة، ولكننا نصم آذاننا عنه».

أي أنه يحاول الخروج من حالة الفصام الذهني التي يعانيها بالرجوع إلى نفس المقولات التي ولدت هذه الحالة.

ولكن، هل يعني هذا أن (عاموس عوز) قد تراجع عن مقولات الفكر الصهيوني؟ من السذاجة أن نقول ذلك. فلقد كتب رواية (الحروب

الصليبية) بعد مهاجمته (لموشيه دايان). كل ما نستطيع قوله هو أن (عوز)، مثل (مفرين) وكتاب صهاينة آخرين، قد يصلون إلى استبصار بتناقض إحدى المقولات الصهيونية، ولكن ذلك يظل ضمن إطار الفكر الصهيوني. أي أن الأستاذ (شراكا) هو أحد تجسدات (عوز) ذاته.

المسائل الفنية

الأيديولوجية والفن:

موضوع العلاقة بين الايديولوجية والفن واحد من أكثر الموضوعات التي كثر الحوار حولها بسبب أهمية هذا الموضوع، ولأنه كان مسألة مركزية في الصراع بين الفكر الاشتراكي وأعدائه. ورغم تشعب الآراء حول هذا الموضوع حتى بين أفراد المدرسة الواحدة فإننا نستطيع القول إن هنالك بعض المسائل المتصلة بالعلاقة بين الايديولوجية والفن قد تم حسمها، ولكن ذلك لا يعني بالطبع أنها نالت إجماع الآراء. من ذلك:

- إنّ كل ايديولوجية متخلفة عن العصر ومعادية للإنسان لا بد أن يكون لها أثر سلبي على الفن. أي أن كل ايديولوجية تنطلق في حكمها على عصرنا من أفكار أوضاع سابقة، ولا تؤمن بقيمة الإنسان بغض النظر عن الجنس واللون، فمن المحتم أن يكون تأثيرها سلبياً على الفن.

إن انحطاط مستوى الفن الذي انتجته النازية كان شاهداً حاسماً وبرهاناً قاطعاً على ذلك. ولعل هذا ما يفسر هبوط مستوى الأدب الذي يصدر من داخل الكيان الصهيوني .

ومشكلة أيديولوجيات مثل النازية والصهيونية والعنصرية أنها رغم ما تدعيه من جدة في رؤيتها للعالم فهي في معطياتها الأساسية تكرار للمقولات المعلنة أو المتضمنة للاستعمار التقليدي في القرون 17 و 18 و 19.

إنّ الأساس الأخلاقي والواقعي للاستعمار التقليدي قد فقد مبرر وجوده، وكل تقدم في عصرنا يلقي مزيداً من الضوء على همجية ولا إنسانية الايديولوجية الاستعمارية التقليدية. إن ذلك الغشاء الرقيق الذي كان يغطي به الاستعمار التقليدي طبيعته -مثل رسالة الرجل الأبيض، وعبء الرجل الأبيض، وتحضير الشعوب المتخلفة- قد أصبح نكتة تثير الضحك. بل هي نكتة دامية؛ إذ تجعل من إبادة مئة مليون أفريقي وهم يساقون كعبيد في سفن الرجل الأبيض أو من إجبار الشعب الصيني على تعاطي الأفيون، عملية تحضير!

إن التأثير السلبي الذي تنتجه ايديولوجية متخلفة ومعادية للإنسان هو أنها تفقد الفنان العملية الجوهرية في الفن، وهي التعبير الصادق عن التجربة المعاشة. إن الأيديولوجية هنا لا تضيء الواقع ولكنها تصدر أمرها إليه. فالايديولوجية الصهيونية تصدر أمرها للواقع: لا يوجد شعب فلسطيني، كانت فلسطين قفراً منذ أن هجرها اليهود وها هم يعودون إليها، لا يوجد بعد قيام الكيان الصهيوني إلا يهود أشرار خارجه وهكذا ... وإذا اختلف الواقع مع الأيديولوجية فالواقع لا وجود له.

وإذا أخذنا مسألة الرمز، فالرمز في الأدب هو تكشيف للواقع. أما في الأدب الصهيوني فإن الشخصية هي رمز بالأساس ولهذا فهي تلتزم بمعطيات الرمز أكثر من التزامها بالمنطق الإنساني وتلقائيته.

ولنرجع إلى روايات (عاموس) الأربع. إن المجال لا يتسع هنا لدراستها فنياً باستفاضة، ولهذا فلسوف نكتفي ببعض الملاحظات المستندة إلى هذه الروايات.

السخرية: إن أبرز ملامح (عوز) الفنية هو السخرية. إنه حتى في موضوعات حساسة بالنسبة للأيديولوجية الصهيونية مثل اضطهاد اليهود وإبادتهم يلجأ لسخرية تجرح أحياناً إحساس القارئ. ففي رواية «في مكان آخر، ربما» يتحدث عن الحاخام (نفتالي هيرش بيرغر)، فيقول إن جسده ذو نسب غير مألوفة: ساقين قصيرتين، سمينتين، وكرش كبير، دون رقبة، فيستقر رأسه البقري الضخم على كتفيه القويتين الناتئتين. عيناه شقان صغيران في شبكة كثيفة من التجاعيد العميقة. كان أحياناً يقف لساعتين أو ثلاث ساعات دون حركة سوى حركة فكه الدائبة التي تمضغ التنباك، ومن خلال لحيته الضخمة تنطلق نافورة من عصارة صفراء. يقال إنه لا أحد رآه مرة واحدة حزيناً أو فرحاً. كان يقوم بأعماله دون حماس ولكن بعناية. كان يبدو وكأنه يعيش حلم يقظة طيلة الوقت. ولكن لا أحد كان متأكداً من ذلك. «ثم جاء الألمان وأخذوه وشووه في أفران سوبيبور».

ويصف ستة رجال ونساء متقدمين في السن يعيشون في المستعمرة أنهم «آباء مؤسسي المستعمرة الذين نجوا وأتوا ليعيشوا قرب أبنائهم وبناتهم ...».

«... عملهم في الجوارب وحياكتها ...».

«خلال فترة الصباح تراهم كتلة قائمة في ظل شجرة الجميز التي تقوم في مواجهة أكواخهم. تراهم جالسين في كراسي مريحة، وأجسادهم الهشة ملفوفة بالأرواب، وسنارات الحياكة ترتعش في أيديهم، ورؤوسهم محنية كأنهم يتمتمون بتعويذات... ».

«الشخصية الرئيسية بينهم (كوسبودن بودولسكي)... طويل ونحيل، ولكن هنالك حدبة فوق كتفه الأيسر. الرجلان الآخران قصيران وهشان، ويطلق عليهما على التوالي «الغليظ» و «النحيل». كان رأس الأول وخداه وذقنه ورقبته مغطاة بشعر قصير خشن أبيض. أما الثاني فكان

أصلع تماماً. كان وجهه قرمزياً وناعماً كوجه طفلة. كانت حركته حذرة حتى ليبدو وكأنه يتحرك في عالم مصنوع من الكرستال...».

ثم ينقل طرفاً من أحاديثهم:

«- أكاد أجن . كنت أستطيع إدخال الخيط بالإبرة وأنا مغمض العينين.

- حساء الشمندر البارحة لا يشبه حساء الخضار الروسي.

- انكسرت قصرية الزهور فاستعملت صفيحة قديمة.

- الحبوب المنومة لم تعد تؤثر بي.

- ذلك الفأر جاء مرة أخرى الليلة الفائتة. أملك البرهان على ذلك. أكل كعكة من كعكاتي...».

والواقع أن استعمال (عوز) للفكاهة له طابع خاص؛ إذ هو سخرية في عرض الموقف أكثر من كونه فكاهة نابعة من الموقف ذاته. واعتقد أن هذا يعود إلى صراع بين الأيديولوجي والفنان.

إن المواقف التي يعرضها (عاموس عوز) في رواياته تتسم بالسنتمنتالية والافتعال. فعندما تدان امرأة لأنها هجرت حياة تعسة، أو لمجرد أنها شكت منها، وخاصة عندما تقارنها بحياة جميلة سابقة، لا يأتي تبرير هذه الإدانة من الموقف ذاته، بل من مقولة صهيونية: العذاب في أرض إسرائيل خير من الحياة السعيدة في أرض المسيحيين. أي ان هذه المرأة مدانة انطلاقاً من مقولة مجردة لا صلة لها بالواقع. أما معطيات هذه المرأة التي تتلخص في حقها بأن تعيش في أمن وسعادة دون خوف من المستقبل، وبعيداً عن حياة الكد والعناء التي ترى أن لا طائل وراءها، فهي ملغاة تماماً.

هذا مثال واحد من عشرات الأمثلة التي تصور التعارض بين مقولة

سنتمنتالية تجريدية وبين التجربة الحية.

لنأخذ (نوكا) كمثال آخر. ما الذي يجعل صبية جميلة ترتمي في أحضان عجوز سمين، نصف أبله، تفوح منه رائحة العرق والقذارة، وتهجر شاباً يقاربها سناً، يحبها وتحبه؟ لا يوجد أي تبرير واقعي لذلك، بل اننا نجد التبرير في مقولة تجريدية: إن نوكا تحاول أن تكفر عن ذنب أمها التي هجرت (الوطن القومي) واختارت أن تعيش في أرض الآريين.

وغير ذلك من الأمثلة.

إن هذا كله يشير إلى أن الفكر الصهيوني لا يستطيع أن يكون ايديولوجية تخلق فناً حقيقياً. ولكن روايات (عوز) الأربع تشير إلى أنه يملك حس فنان. وفنه يصطدم بالمقولة المجردة.

من هنا يأتي دور الفكاهة بالأسلوب الذي نراه في هذه الروايات. انها محاولة لاخفاء الافتعال الايديولوجي من خلال السخرية التي تخدم غرضين في هذا المجال:

الأول أنها تضفي طابعاً حيادياً على الموقف. أي أنها تقول: «إنني غير مؤمن بهذه المقولة، ولكنني أعرضها بحياد، وخير دليل على ذلك أنني أسخر منها».

والثاني ذو طابع بنائي. فالكاتب لا يسخر إلا من الشخصيات التي ينحاز إليها، والتي يرى فيها كذلك تجسيداً للمقولات الصهيونية. أما الشخصيات المدانة فلا تكون موضعاً للسخرية.

وهكذا يوجد الكاتب توازناً بين مقولاته السنتمنتالية وبين عرضها بشكل واقعي وفني. أي أن يسخر من البطل الخير ـ كما يراه هو ـ ويعامل الشخصيات الشريرة بجدية واحترام. إنه حتى الألمان الذين أخذوا الحاخام وشوهوه يبدون في مظهر جاد إذا ما قورنوا بالصورة المضحكة التي يبدو فيها الحاخام.

وجهة النظر الأخرى:

إذا حاولنا أن نستقصي الشخصيات التي يدينها الكاتب فهي تتلخص في: العرب؛ سكان تل أبيب؛ يهود الشتات. ولكننا نلاحظ مسألة مهمة بالنسبة لهذه الشخصيات وهي أن ادانتها أقرب إلى الهجاء منها إلى الإدانة المبنية على أساس فني. إن هذه الشخصيات التي تنتمي إلى الأنماط الثلاثة التي ذكرناها نسمع وجهة نظر الذي يدينها، ولا نسمع وجهة نظرها هي.

فبداية تصدر ادانتها عن مقولة تجريدية متعالية على الواقع. فالقول إن العرب أشرار لأنهم لم يوجدوا قط في فلسطين، وليست لهم بها أية علاقة وإن فلسطين كانت أرضاً قفراً حتى جاء الصهاينة وعمروها هي مقولة من وجهة نظر واحدة. لأن العربي يملك كل الدلائل التاريخية والواقعية التي تثبت أن فلسطين أرضه، وهذه الدلائل ليست تجريدية كما يدعي الصهاينة، بل إنها صارخة في واقعيتها، ولها صلابة الأرض، وثقل الحق.

وإذا كانت وجهة النظر الصهيونية قد تصلح مادة للدعاية فلا يمكن بأية حال أن تصلح مادة للفن.

لقد أدى هذا بالكاتب إلى أن يحول العربي إلى جبل أجرد يهدد بسحق المستعمرة الصهيونية الخضراء: أصوات مرعبة تأتي من وراء الحدود، كشافات ضوء شريرة براقة تجتاح المستعمرة، وفدائيون يخفيهم الظلام ويطلقون نيرانهم بلا سبب على السكان اليهود المسالمين. ومثل هذه الرؤية لا تجعل من العربي شخصية إنسانية في عمل فني، بل عدواً في منشور دعاية.

هذا فيما يختص بالبعد الواقعي الملغى بمقولة تجريدية صهيونية. أما بالنسبة للشخصيات التي وضعها الكاتب في رواياته فهي تبدو لنا

باستمرار من خلال وجهة نظر الذين يدينونها. ان كل ما نعرفه عن (إيفا) محور ليدينها.

ولكن ما هي وجهة نظرها؟

لقد اعتبر الكاتب سأمها من الحديث المتصل عن العذاب اليهودي دلالة سقوط، يؤكده رغبتها أن ترى مسرحية تتحدث عن الحب والموت. ولكن ألا يمكن ـ فنيا ـ اعتبار ذلك رغبة من فتاة شابة أن تعيش حياة فيها بعض المرح؟ ألا نسمح لفتاة تعمل في الأرض طيلة النهار وتقضي ليلها في خيمة بائسة مهددة دوماً، وفي البرد الشديد، أن تعلن ضيقها ولو لمدة دقائق؟

وعندما يحاول الكاتب أن يجعل تبرير (إيڤا) لهجرتها من المستعمرة برغبتها في أن تصلح فساد ابن عمها، فهو ينسى أن في الواقع الكثير من الظروف الواقعية التي تدعوها للهجرة، ولكنه يختار ذلك التبرير الذي نكتشف كذبه على الفور: إن (إيڤا) لم تصلح فساد ابن عمها، بل هي نفسها أصبحت أكثر فساداً منه.

ومن خلال هذا التعسف تطل المقولة الصهيونية برأسها: لا حياة شريفة لليهودي خارج (وطنه القومي).

إنني اعتقد أن سجن الإنسان داخل مقولة سابقة عليه ومتجاوزة هي الغاء لانسانية الإنسان. لقد فعلها (هتلر) حين وضع سلماً للبشر فيه العرق المتفوق، وفيه العرق الخسيس، بشكل تعسفي لا سند له من الواقع. والفكر الصهيوني يفعل الشيء ذاته.

إن الرواية الوحيدة التي يحاول فيها (عاموس عوز) أن يعرض وجهة النظر الأخرى هي رواية (الحملات الصليبية). ولكنه حين يفعل ذلك فهو يقدم لنا وجهة النظر بأسلوب الهجاء. لماذا يحمل المسيحي كل هذه الكراهية لليهود؟ إن اليهودي في هذه الرواية طيب ووديع ويستحيل أن

يثير كراهية أحد، فلماذا يكرهه الكونت و(كلود)؟

ونكتشف هنا إجابة بائسة: لأن الكونت مصاب بالجنون، و(كلود) مصاب بالشذوذ والانحراف. أي أن الكراهية قائمة لسبب فردي خاص بهذين الشخصين. إن هذا يؤدي بنا إلى أحد احتمالين: فإما أن كل المسيحيين مصابون بالجنون أو الشذوذ؛ أو أنه لم يكن هنالك اضطهاد لليهود. وكلتا المقولتين منفية من اتجاهين: الواقع الحقيقي، والفكر الصهيوني نفسه. وهذا لا يعني أن الواقع والفكر الصهيوني متطابقان. ولكن الواقع يقول إن سبب الكراهية لليهود في القرون الوسطى يعود إلى وظيفة اليهودي في مجال المال؛ والفكر الصهيوني يقول ان المسيحي مصاب بداء كره اليهود من دون سبب على الإطلاق.

الصراع:

نلاحظ في هذه الروايات الأربع انتفاء الصراع المشخص. إننا نواجه فيها دائماً غياب أحد أطراف الصراع وتحوله إلى قوة شريرة، مبهمة، مدانة. قد يقال إن (زخريا) في رواية «في مكان آخر، ربما» هو التجسيد المشخص للصراع بين سكان المستعمرة ويهود الشتات. ولكنه طرف مقحم ومدان منذ البداية. إن الطرف الآخر من الصراع هو (إيفا) التي لم نرها ولكننا سمعنا عنها من طرف متحيز.

وفي رواية «الحملات الصليبية» نرى طرفاً واحداً من أطراف الصراع، أما الطرف اليهودي فغائب، لا يبدو إلا مستسلماً أو قتيلاً. أما في رواية (تل المشورة الشريرة) فإن الشخصية الوحيدة التي تدخل صراعاً حقيقياً هي شخصية (روث)، ولكن صراعها ضد مقولة. أما في رواية «الحب المتأخر» فالصراع يدور في داخل الأستاذ، بين رغبته في الاستمتاع بالحياة وبين الهوس الذي يسيطر عليه. أما الآخرون الذين

يحاول الأستاذ اقناعهم بوجود مخطط روسي لإبادة اليهود فنحن نسمع عنهم دون أن نراهم أو نشهدهم وهم يصارعون وهم الاستاذ.

ولعل أشد ما نفتقده في هذه الروايات هو حضور العربي الدائم وغيابه الدائم في الوقت ذاته. إنه لا يأخذ شكلاً إنسانياً قط، رغم أنه أحد المحاور الرئيسية للصراع .

إنّ هذا يفقد روايات (عاموس عوز) حيويتها؛ إذ تتحول إلى مجموعة أحداث أحياناً، أو إلى ميلودراما تجسد الصراع بين العاطفة والواجب، أو إلى بحث في سيكولوجية الشخصيات.

إنّ رواية «في مكان آخر، ربما» تستغرق طويلاً في وصف المستعمرة، لتبرهن على خصوبة الأرض في ظل الصهيونية وعلى جدب الأرض العربية. ثم يقدم لنا كل أفراد المستعمرة، يحكي لنا ماذا يعملون، وأين ولدوا، وكيف نشأوا، ثم يعيد تقديمهم مرة بعد أخرى وهم يدخلون قاعة الطعام وكذلك وهم يخرجون منها. ثم يستغرق في ذكر الإشاعات التي تدور في المستعمرة ... يمضي في ذلك طويلاً دون أن يضع ذلك في أي سياق درامي، أو في سياق الأحداث الأساسية في الرواية.

إنّ غياب الصراع الحقيقي بين أشخاص حقيقيين هو الذي أدى إلى تسطيح الرواية على هذا النحو.

(2)

الحروب الصليبية

تأليــف: عاموس عوز

ترجمها عن الإنجليزية

غالــب هلســا

1

بدأ كل ذلك مع انفجار حوادث السخط في القرى يوماً بعد يوم. بدأت نذر الشؤم تظهر في المناطق الأكثر فقراً. فقد شاهد فلاح عجوز من (كالان) شكل عربة نارية في السماء. وفي (سارو) أخذت عجوز جاهلة تنعب بما يوحى إليها بلغة لاتينية متقنة. ودارت شائعات عن صليب في كنيسة منعزلة ظل يشتعل بلهب أخضر لمدة ثلاثة أيام دون أن يحترق. كما ظهرت سيدتنا مريم العذراء لفلاح أعمى بجوار نافورة في إحدى الليالي، وعندما ملأ القسيس بطن الفلاح بالخمر وصف رؤياه بلغة إنجيلية.

وأخذ المؤمنون يتلمسون نوعاً من الفرح اللئيم يختمر في بيوت اليهود الملعونين طيلة فترة الشتاء.

كما وقعت أحداث غريبة. فلقد ظهرت في أماكن متفرقة، وفي

الوقت نفسه، عصابات تتألف من رجال سمر، ضخام وسود كالدببة. وحتى اولئك الذين نالوا قدراً من العلم كانوا يحسون أحياناً بهمهمة تنهش داخلهم. لم يعد هنالك أمن.

في (كليرمون)، سنة 1095 لتجسد سيدنا يسوع المسيح، دعا البابا (اربان) الثاني رعايا الله إلى القيام بحملة لتحرير الأراضي المقدسة من أيدي الكفار، وأن يتطهروا من خطاياهم من خلال أهوال الرحلة -لأن الفرح الروحي يتحقق من خلال الألم.

في بداية خريف السنة التالية، وبعد أربعة أيام من انتهاء موسم صنع الخمر، قاد النبيل (جواوم) من (تورين) حملة عسكرية مكونة من فلاحيه وأقنانه وبعض الهاربين من القانون في ضيعته الواقعة قرب (أفينو) متجهاً إلى الأراضي المقدسة، ليشارك في تخليصها، وبهذا يصل إلى راحة البال.

فبالإضافة إلى الوباء الذي اجتاح الكروم وأذبل العنب، والديون الضخمة، كانت هنالك أسباب أكثر إلحاحاً دعت الكونت النبيل للقيام بهذه الحملة. أنبأنا بهذه الأسباب شاب لامع يدعى (كلود)، شارك في هذه الحملة، وكان يلقب بالأحدب. كانت تصله بالكونت قرابة بعيدة، ونشأ في إقطاعية الكونت.

وقد يكون (كلود) هذا متبنى من قبل الكونت الذي لم ينجب أطفالاً. وقد يكون مجرد متطفل. وكان يجيد القراءة والكتابة ويكاد أن يكون مثقفاً، رغم أنه كانت تتعاقب عليه نوبات من الكآبة تعقبها نوبات من الحماس. كان يندفع بالتناوب - بقلق ودون أن يصل إلى رضى حقيقي - إلى ممارسات تنسكية ثم إلى

الاستمتاع الجسدي. كما كان شديد الإيمان بقوى ما وراء الطبيعة. فيرافق البلهاء معتقداً أنه وجد فيهم شرارة مقدسة،كما كانت الكتب القديمة والفلاحات يلهبنه برغبة جامحة. ولقد أدت مبالغاته في الحماس الديني وفي الكآبة الجهمة إلى خلق شعور بالاحتقار والكراهية نحوه عند الآريين، فاستهلكت عافيته، مشعلة لمعة شريرة في عينيه.

أما الكونت فقد كان يعامل (كلود) بتسامح جهم وبغضاضة لا ينجح دائماً في السيطرة عليها. وقد راود الشك حاشية الكونت حول حقيقة هذا الشاب ذي الشعر الأبيض الذي كان فوق كل شيء مهووساً بشكل عنيف ومضحك بالقطط والذي كان جامعاً متحمساً لحلي النساء.

يذكر (كلود) في كتابه أنه من بين الأسباب التي دعت الكونت للقيام بهذه الرحلة بعض الأحداث التي تعاقبت بتتال سريع خلال السنة المنصرمة. يقول (كلود) : « في بداية ربيع عام 1096 لتجسد سيدنا المسيح أخذت خطيئة الصلف ترفع رأسها بين الفلاحين. فقد حدث في اقطاعيتنا عدد من حالات الوقاحة والتمرد ، مثل تدمير جزء من المحصول الشحيح بدافع الغضب لشح المحصول، وسرقت خناجر، وفاض النهر، كما أحرقت الحظائر، وشوهدت نجوم تهوي، وشاعت ممارسة السحر، كما دبرت مقالب خبيثة. حدث كل هذا في اقطاعيتنا وحدها ، هذا بالإضافة إلى الجرائم الأخرى في الضيعات المجاورة، وحتى تلك التي تقع عبر النهر. والواقع أننا اضطررنا لتزييت آلة التعذيب مرة أخرى، وإلى

تجربتها في أجساد بضعة اقنان متمردين لتطفئ حمى عنفهم المتزايد، لأن الألم يولد الحب. في اقطاعيتنا نفذنا حكم الموت في سبعة فلاحين وأربع ساحرات. خلال تعذيبهم تكشفت جرائمهم في ضوء النهار، والضوء يطهر كل خطيئة».

«وبالاضافة إلى هذا فإن سيدتنا الشابة (لويزبوم) بدت عليها أول مظاهر المرض خلال فصل الربيع ، وهو نفس المرض الذي أودى بحياة سيدتنا السابقة قبل عامين».

«في عيد الفصح شرب الكونت أكثر من الحد المعقول، ولكنه لم ينجح في الارتفاع فوق حالة غضبه العنيف القلق إلى قمم نشوة السكر. حدثت أحداث» يضيف الكاتب بنبرة مكتومة «مثل تلك التي حدثت تلك الليلة، عندما حطم الكونت ستة أقداح خمر ثمينة، وبعض مخلفات العائلة الثمينة. لقد قذف الخدم بهذه الأشياء الثمينة بسبب غلطة لم نعرف طبيعتها. وقد سبب ذلك بعض الأذى، وسال دم. وقد عوض عن غلطته بصلوات صامتة مستمرة وبالصيام، ولكن قطع الأشياء التي تهشمت لا يمكن الصاقها ببعضها ، وكلها محفوظة عندي حتى الآن. ولكن ما حدث قد حدث، ولا يمكن منعه».

وكتب (كلود) ما يلي :

«في أيام الصيف الأولى، خلال حصاد الشعير، أخذنا نشك في الموظف اليهودي. وتم إعدامه بسبب حديثه المهتاج في ادعاء البراءة. وقد كان يمكن لحرق اليهودي أن يبدد بعض القلق والكآبة اللذين استوليا علينا منذ الربيع، ولكن ذلك اليهودي أضاع

الفرصة عندما أطلق لعنة يهودية عنيفة على الكونت من فوق المحرقة. حدث هذا الأمر المرعب بحضور جميع أهل البيت ابتداء من السيدة المريضة حتى الخادمات الجاهلات. من الواضح أنه لا يمكن معاقبة هذا الخسيس بسبب لعنته، فمن طبيعة هؤلاء اليهود أنهم لا يحترقون إلا مرة واحدة».

«أخذت حالة سيدتنا الصحية تتدهور خلال الصيف وأخذت تقترب من الموت. دون رحمة الله فلا فائدة من الحب. كان مشهداً مؤسياً، كم كانت آلامها محزنة، وكم كانت صرخاتها مرتفعة في الليل، مما اضطر الكونت في النهاية لأن يضع في البرج أرق زهرات حديقته. لهذا السبب كان ابن الله وديعاً وهادئاً عندما تحمل عنا كل آلامنا، حتى نعلم ونتذكر أن أرق حصاد هو هذا، وذلك عندما يقضم المنجل أنعم نبتة في دنيا الله. وهذه علامة لنا في الليل وفي النهار، وفي الليل أصدر الكونت أوامره أن تتلى صلوات المساء بجوار حجرة سيدتنا المريضة».

«كانت سيدتنا صغيرة في السن، وكان وجهها الشاحب يبدو دائماً مندهشاً. أطرافها كانت رقيقة، وتبدو السيدة شفافة تماماً كأنها مصنوعة من مادة روحانية، لا من مادة دنسة. حلقت بعيداً عنا أمام عيوننا. كنا نسمعها أحياناً تغني، وأحياناً كنا نمسك منديلها المبتل بالدموع، وفي ساعات الصباح الأولى كنا نسمعها تتضرع إلى العذراء المباركة. ثم يمزق صمتها الهواء. في هذه الفترة تدهورت أحوال اقطاعياتنا المالية. وأخذ الدائنون يسلحون أنفسهم، وحتى الفلاحون أخذوا يتذمرون».

« أصبح كلامنا همساً. بدت سيدتنا هشة وبيضاء الوجه إلى حد أنها وهي راكعة أمام الصليب أصبحت تشبه سيدتنا العذراء. كانت تنطفئ، وأما الكونت فاستغرق في الصمت واستمر يشتري مزيداً من الخيول الممتازة يزيد كثيراً جداً عن حاجة الحقول والكروم. كان يدفع ثمنها بقطع من أرض الغابة أو الحدائق، لأن النقود التي اقترضناها قد استهلكت ».

« وفي صباح مبكر سمعت سيدتنا أجراس كنيسة القرية تدق. مدت رأسها الذهبي عبر أسلاك النافذة. عندما ارتفعت الشمس وجدت مكانها في حضن مخلصنا. سوف احتفظ بخفها في الصندوق الذي في حجرتي مع اسوارتيها الصغيرتين وصليب أخضر من اللآلئ كانت تضعه حول عنقها، وهو تحفة رائعة ».

كما تحتوي رواية قريب الكونت هذا بعض التأملات المشوشة المليئة بالخلط والمكتوبة بلغة لاتينية مضطربة وغير مترابطة. ويمكن اقتباس بعضها هنا:

« تلمسنا أشياء لا حياة فيها. هنالك لغة رمزية تحيك شبكة بين الأشياء. لا تسقط ورقة شجر واحدة على الأرض دون قصد خفي. ان رجلاً من النوع المتأمل مثل سيدنا الكونت النبيل إذا توقف عن دائرة الفعل فهو مهدد على الفور بالوقوع تحت نفوذ قوى ما وراء الطبيعة. لو كان غير مستحق للبركة فإنها تنفذ من أعضائه الحيوية مثل السم القاتل، خفية على العين والملمس ولكنها مميتة. إنه عذاب السهول الفسيحة، تحرقها شمس الظهيرة، ولا رجل هناك يلقي ظله. العطور يحملها النسيم. الغابات ساكنة ولكنها

متوعدة. ربما إغواء المحيط، أو صمت الجبال البعيدة الحنون اللاذع. وهكذا فإن رجلاً من النمط الرفيع، في منتصف حياته، نحو المساء، حين تهبط الريح، قد يتوقف فجأة وينكمش، ينكمش مصغياً بكل طاقته، وهو حين يصغي ينهش روحه دون انقطاع».

«وهكذا فإنه لكل هذه الأسباب، ولأسباب أخرى لا يمكن وضعها في كلمات، يتوجه الكونت إلى الأراضي المقدسة، عازماً على المشاركة في التخليص، ولهذا أيضاً: ليجد راحة البال».

2

قاد الكونت جماعته عبر أرض الرون في اتجاه مدينة (سان اتيان). وكان يجلس على سرج حصانه باسترخاء كأنه صياد مرهق بتقاطيعه المنحوتة من الجرانيت وبكتلة رأسه الكبيرة العريضة. وكان يزمع أن يتوقف في المدينة يوماً أو يومين. قال (كلود) الأحدب إن الكونت كان يريد أن يقضي بعض الوقت في الكاتدرائية يعتزل للصلاة، وينال بركة المطران للحملة، ويشتري علفاً للماشية واسلحة. ربما كان يريد أن يستأجر بعض الفرسان لحملته كمرتزقة. فالطرق غير آمنة خارج أسوار المدينة ولا بد للسيف من أن يفتح طريقاً لقوات الرب.

كان الكونت يمتطي ظهر مهرته (مسترال)، وكان ما زال يخطو متمهلاً. لم يكن بسبب التردد، ولا للهدوء الذي يلي لحظة

الالتزام، بل كان بكل بساطة تقدماً أفقياً بطيئاً على الطريق. كانت المهرة (مسترال) ضخمة، عريضة البناء مثل سيدها. كانت تشبه في البداية حصاناً يعمل في الحقل: لم يكن بالإمكان اثارتها إلى درجة الغضب، ويعود الفضل في ذلك إلى نوع من التواضع الظاهري الذي يسيطر على كل حركاتها والذي يشبه نوعاً من التأمل الذاتي - تأمل رصين، مستغرق، يكاد يكون تقوى. إلا أن النظرة المتفحصة عند مراقبة نزواتها سواء كانت مسرجة أم لا، تكشف بوضوح أنه وإن كان هنالك استحالة أن تثار، فيستحيل أيضاً على أي نحو، إخضاعها بشكل كلي.

في كل مكان كان يحس زحف الخريف فوق السهول والتلال. كانت روائح الكروم والنبيذ تلاحق الحملة خلال مسيرتها أشبه بلحن ناعم ولكنه في الوقت ذاته نافذ وملح.

كانت مظاهر الجفاف وآفات الكروم المدمرة ظاهرة للجميع بوضوح. كانت وجوه الفلاحين تحمل تعابير حقد أبكم لم يحسنوا إخفاءه.

حتى في سنين الخير تظل هذه المناطق شاخصة إلى السماء الرمادية بنظرة بكماء: فلاحون يلطخهم الطين، أسقف قش متعفنة، صلبان بدائية مثل إيمان أهلها، خالية من الجمال وقوية، صفوف متتالية من أكوام القش السوداء، وعند الفجر والغسق تسمع من بعيد أصوات أجراس صدئة، تنادي يسوع المخلص من الأعمال.

في ساعات الغسق هذه تستطيع العين أن تميز الخطوط المحكمة

لأجساد طيور قوية تطير، وان تسمع صرخاتها. كل شيء هناك يعطي أدلة متزايدة على ثقل وكثافة الواقع أو، بعد إعادة النظر، على وجود نبضة غير ملحوظة لكائن مجرد عاقل.

كل شيء، حتى الفتيات الفلاحات بسمنتهن المرنة الخجولة والصامتة اللواتي توقفن ليطالعن الحملة عن بعد مناسب... كل شيء كان يحتمل عدة تفسيرات.

هل فكر الكونت في مختلف التفسيرات؟! إن كان قد فعل، فإن ذلك لم يكن يبدو بشكل ظاهر. فالأوامر المقتضبة التي يصدرها تشهد على انشغال داخلي. كان يبدو وكأنه منشغل بإحدى مسائل المنطق، أو كأنه يراجع دفاتر حساباته ليكتشف خطأ في الصادر والوارد. ولكن (كلود) الذي لحظ صمت سيده المتكرر كان يعزوه أحياناً كثيرة إلى استغراق الكونت في التأمل المجرد، أو في الرياضة الروحية. وباختصار فإنه قد لوحظ أنّ الكونت لا يجيب عن الأسئلة حين يسأل، أو أنه يرد على أسئلة لم توجه إليه. كأن يقول: «ضعها هناك». «الآن». «هاتها». «إلى الأمام».

الذين سمعوا هذه الأوامر تخيلوا أن الشخص الذي يصدرها على أهبة النوم، أو هو يحاول إيقاظ نفسه من استرخاء عميق.

رغم هذا فقد كانت تحوط الرجل هالة السيادة دون حاجة منه إلى بذل مجهود أو أي تأكيد عليها: كانت جزءاً من كيانه تشيع حوله الخوف والصمت حتى وهو نائم... ذئب جائع.

صفة عضوية... نقرأ في كتاب (كلود) وصفاً قصيراً لمظهر الكونت في بداية الرحلة، ومقارنة قبيحة، كما عودنا الكاتب:

«للحقيقة فإن سلوك الكونت لم يكن طبيعياً جداً ومتماسكاً فحسب، ولكنه كان أيضاً خالياً من الشكوك والانفعال. كان مثل نهر لطيف يشق طريقه بهدوء عبر مروج السهل، قوياً وينساب بدعة فلا يجرف شاطئيه ولا يرسل الرذاذ، ولكن كل شيء يقع في طريقه يكتسحه بدأب، وبقوة ليست ودودة ولا وجلة: نهر وديع ومجتاح».

3

في غروب اليوم الثالث من مسيرة الحملة وصلت عصبة المؤمنين أبواب مدينة (سان اتيان). سلموا اسلحتهم للضابط الذي يحرس بوابة المدينة، ودفعوا كل الرسوم، الدينية منها والحكومية، وجرى تفتيشهم بواسطة الحراس للتأكد من عدم وجود مرضى أو يهود بينهم، وبعد ذلك سمح للكونت ورجاله بدخول المدينة. وأخذ الجهلة من بين العامة يداعبون لحاهم ويمضغون شعرها وهم يشهدون هذا العدد الوفير من النساء والقسس والتجار والبضاعة.

في الميدان الواقع خلف تكية القلب المقدس استعرض الكونت رجاله. اصدر أوامره باشباع الخيول، وباقامة حراسة على الأمتعة والحيوانات،أعطى كل نفر قطعتين من الفضة وأعطاهم إجازة

يتجولون فيها في المدينة تنتهي فجر اليوم التالي «حتى يستطيعوا كفاء احتياجاتهم من النساء والشراب، وتطهير أرواحهم بالصلاة».

أما بالنسبة للكونت فقد زار الكاتدرائية، بعد تردد قصير. فوق كل شيء كان يريد راحة البال. وكما يحدث للبعض ممن يبحثون عن شيء يجهلون طبيعته فقد شعر بقلق جسدي غير محدد وكأن جسده يثور على روحه ويدنسها بابخرة شريرة. كان جسده صلباً، ضخماً ومتماسكاً، ورأسه ينحني قليلاً إلى الأمام، وكان ثقل العالم يضغط عليه بقوة أكبر مما يضغط على المؤمنين العاديين.

مرت في ذهنه، وهو في طريقه إلى الكاتدرائية، صور موت زوجتيه، الثانية والأولى أيضاً، تأمل الأشكال التي اتخذها الموت، كما يتأمل رجل بلورات الماء المتجمد في الشتاء. لم يحزن لفقد المرأتين فكلتاهما لم تنجب له ابناً ووارثاً. ولكنه رأى بوضوح أن موتهما هو بداية لموته. تصور موته كمكان بعيد على المرء أن يذهب إليه بالقوة. قد يصعد إليه أو يشق طريقه إليه بالقوة. جمع برابطة صماء وعنيدة بين عبارتي «يخلص» و «أن يتم خلاصه» و «يشعل النار» و «يحترق بالنار». وصيفاً بعد صيف، وحتى يوماً بعد يوم، كان يشعر بأن دمه يفقد حرارته بشكل مستمر. لم يكن يعرف السبب ولكنه تشوق بصمت إلى العناصر البسيطة: الضوء والدفء والرمل والنار والريح.

في الوقت نفسه ذهب (كلود) الأحدب إلى بيت مشبوه في طرف المدينة. وجد هناك مومساً، فالبسها ثيابه ولفها بعباءته،

وأعطاها خنجره. ثم تمدد على الأرض حتى تدوسه بأقدامها، وتضرع إليها أن تعذبه. وعندما كان يتلوى وهو مبلل بالعرق صرخ (كلود) وضحك، بكى وتكلم دون انقطاع. وفي رواية مضطربة كتبها تلك الليلة في حجرته في تكية القلب المقدس لم يستغرق في تفاصيل خطيئته بل صرف حديثه إلى الوصف الحماسي للقوة السرمدية لرحمة الآلهة. هل تمتنع الشمس عن أن تعكس صورتها حتى في البرك الموحلة؟

كان مطران (سان اتيان) المبجل صغير الحجم، مدوراً... كان رجلاً بسيطاً، يجلس في مكتبه من دون حركة، يتأمل يديه الموضوعتين أمامه على الطاولة، أو ربما كان يتأمل الطاولة ذاتها، ويهضم طعامه بحذر. كان التعبير الذي يحمله الكونت حين دخل مكتب المطران فجأة يكاد يسد الباب بحجمه الضخم، كما وصفه المطران فيما بعد في يومياته: «يحوطه جو قد يكون نتيجة توهان أو نتيجة تركيز، وهما حالتان من حالات الذهن يصعب التفريق بين مظاهرهما الخارجية على نحو أكبر مما نعتقد».

بعد الصلاة جلس المطران وضيفه يتناولان طعامهما. سمح كل للآخر بتناول كأس صغير، وبعد ذلك اعتكفا في المكتبة. كان ضوء عشر شموع ضخمة موضوعة في شمعدانات نحاسية ينسج أشكالاً متشابكة على وجهيهما، وعلى خطوط الأثاث المستدير في الحجرة. كان الضوء يضخم كل حركة ويترجمها إلى لغة الظلال الجهمة. دار حديث قصير بين المطران وضيفه حول التواضع؛ مدينة الله؛ الخيول والكلاب؛ متاعب الرحلة وفرص نجاحها؛ اليهود؛ ثمن أرض الغابات؛ وعن العديد من العلامات والعجائب.

صمت الفارس بعد قليل واتاح المجال لمطران (سان اتيان) ان يتحدث وحده. كان المطران كما يقول في مذكراته المكتوبة بلغة لاتينية متأنقة « سعيداً بذلك الانتباه الذكي والمؤدب. كان في الوقت نفسه تحت سيطرة غير عادية بسبب الصمت الذي أبداه ضيفه».

وأخيراً، وبعد منتصف الليل بفترة، وتحت ضوء الشموع الذي أخذ يشح، منح المطران الغفران للكونت. كما أبلغ المطران ضيفه معلومات مفيدة عن حالة الطرق وذكاء الشيطان وخططه وكيف يمكن افشالها، وعن منابع نهر الأردن المقدس وعن أفعال اليونانيين المقيتة وسبل الوقاية منها. وكانت تلك ساعة صمت مبهم. من عمق الصمت أتى حفيف خافت، كأنما هنالك إنسان آخر غيرهما في الكاتدرائية، له نوايا مختلفة.

قدم الضيف لخادم الرب منحة للكنيسة، ثم استأذن بالانصراف وسار إلى الظلمة الدافئة، إلى إقليم الليل.

قبل أن ينام في سريره أضاف المطران بضعة سطور إلى يومياته تحتوي على ملاحظة قيمة مع أخذ الساعة المتأخرة من الليل بالاعتبار.

كتب الرجل التقي يقول: «إنني على استعداد لأن أقسم الآن بأن الرجل لم ينطق بأكثر من مئة كلمة خلال الساعات التي قضاها معي في هذا المكان المقدس. إنه لأمر مدهش، بل مخالف للطبيعة، إننا لم نلحظ صمته البالغ إلا بعد انصراف الرجل. لقد نجح صمته في إخفاء نفسه كليا». ومضى المطران يكتب وهو منذهل «هذه هي

المرة الأولى منذ أن دخلت سلك الكهنوت التي يحدث فيها أن امنح الغفران لرجل وحتى أن أبارك رحلته دون أن يشعر أن عليه واجباً هو أن يعترف بخطيئة صغيرة من الخطايا الكثيرة التي يمتلئ بها عالمنا مع كل أسف. وأسوأ من هذا ان الغموض الغريب والمريب الذي تعامل به معنا الكونت ظل مخفياً عنا إلى أن غادر حضرتنا. من الطبيعي أننا لا نستطيع أن نطارده ونعود به من الظلمة. ولهذا فنحن مضطرون حتى بعد أن تمت الحادثة أن نمارس العدالة الصارمة وأن نستنتج هنا احتمال أن نكون قد خدعنا بأسلوب دنيء، متقصد وغير مسيحي».

«ومن ناحية أخرى فإن علينا أن نمارس ملكة الرحمة ونشير هنا إلى أن صمته بالإضافة إلى بعض مظاهر الألم التي تخيلنا أننا لاحظناها على ملامح الكونت يمكن تفسيرها على أنها دلالات تواضع ومعاناة روحية». هكذا أنهى هذه الإضافة إلى يومياته: «فضائل مسيحية متميزة؟ ليرحمنا الله».

4

غادرت الحملة (سان اتيان) وانحرفت شرقاً في اتجاه جرينوبل. عبروا نهراً واخترقوا غابات خريفية كثيفة. فالخريف كان يجمع قوته بحذر، فكأنه يتحسس قوة مقاومة النهر والتلال والغابة قبل أن يهبط عليها.

على أطراف القرى كان يقف فلاحون ذوو هيئات رثة وأجساد محنية، يراقبون دون أن يتحركوا مرور الحملة. أما اليهود، فكأن

أحداً قد انذرهم مقدماً؛ إذ هجروا أكواخهم واختفوا بين الحشائش قبل وصول الحملة. ومن أعماق الظلمة والغابة بدا أنهم يثيرون قوى الشر ضدنا بالتعاويذ والتعزيمات التي يطلقونها. لكم نحن غافلون - مجرد كائنات من لحم ودم وأخلاط [1] - عن تلك الشبكة الجبارة الخفية من أفعال الرب التي تحدث حولنا!

كان الكونت يعرف هذا، فقال ليلة (لكلود) في المعسكر: في بعض الأحيان تأتي لعنة الله مثل مداعبة من يد امرأة، وأحياناً تأتي رحمته مثل سكين تنغرس في اللحم. إن جواهر الأشياء ليست مظاهرها ولا تأثيراتها. خذ اللعنة والغضب اللذين صبهما الله على اليهود، انظر كيف أن لعنة الله قد صقلت تلك القبيلة. اليهود مصقولون وأذكياء، حتى لغتنا حين تخرج من أفواههم تتحول، على نحو ما، إلى نبيذ.

كانت فكرة اليهود تثير توقاً داخلياً عند الكونت. إنه توق قوي، مظلم، حزين ومليء بفرح بارد. في حين كان (كلود) الأحدب يفكر بكسل في زوجات اليهود - فاجرات دافئات، رطبات، سمراوات ومخمليات.

وفكر الكونت: هؤلاء اليهود ينهشوننا متلصصين، مثلما ينهش الماء الحديد. إنها اللمسة المهدهدة التي تذيبنا دون أن نلحظ. حتى السيف - سيفنا - يخترق أجسادهم وكأنه يخترق ماء عكراً، ماء ينخره ويذيبه ببطء.

أيها الإله الجليل ارحم عبيدك لأن قوى الشر تعربد حولنا، والإغواء يحاصرنا، ويحاول النفاذ الينا. والإيمان في قلوبنا قويم

وصارم، عار وحزين جداً. أمن الممكن أن يكون أحد اليهود قد تسلل إلى صفوفنا خفية؟

أيقظ الكونت هذا الشك، ورأى أنه استيقظ من جموده. ذوبان دافئ للجليد الذي في داخله أخذ ينبثق، وأخذت حالته تتحسن. من الممكن أن يكون الرب قد منحه علامة أو إشارة خفيفة. وفي قلبه بدا وكأنه يقول: «هنا»؛ «هناك»؛ «الآن».

كان مظهر الحملة يتشوه عندما تنعكس، مقلوبة، في مياه النهر، أو عندما تشاهد من بعيد. فالماء والمسافة يمتلكان خاصية تحويل كل حركة إلى شيء مضحك كلياً. ممتزجاً بخطوط التلال التي أخذت تصبح أشد دكنة يظهر في المقدمة ثلاثة فرسان فوق خيولهم، متلفعين بعباءات بيضاء. وهناك صليب أسود، بدائي الرسم، قد خيط على ظهورهم وصدورهم فوق العباءات، فبدوا كأن سيوفاً تناوشتهم فتحولت جروحهم منذ زمن إلى السواد. كانوا يركبون خيولاً طويلة، بنية اللون. ومن بعيد تبدو حوافر الخيول وكأنها لا تكاد تلمس الأرض.

خلفهم كان يسير الكونت، محاطاً بحاشيته، يركب أفرادها الخيول ويضعون خوذات ودروعاً. وكان الكونت يرتدي ملابس الصيد ويتكئ على سرج مهره وكأن الركوب أرهقه. هل كان، كما يقول (كلود)، قد بدأ، على نحو ما، يعاني من المرض في هذه المرحلة من المسيرة؟ السؤال سخيف. الكل تقريباً يعرفون أن المرض هو اختلاط الإمكانيات الداخلية التي لا يحصيها عد لكثرتها.

بالمقارنة كان من السهل تمييز (كلود) بتشوهه الجسدي وترسه

الأصفر اللامع الذي كان يتوهج مثل الذهب المغشوش. خلف حاشية الكونت كان حوالي ستة وثلاثين شخصاً يسيرون راجلين. وفي المؤخرة كان الحراس يسوقون بغالاً محملة بالمواد الغذائية، عربات تسير على عجلات خشبية، ثم العبيد ورفاق الطريق، بضع نسوة انضممن إلى الحملة، وبقرتان سرقتا من الفلاحين على الطريق، بضع عنزات، وفي ذيل الحملة وعلى جوانبها عشرات الكلاب الجائعة، المشوهة، كلاب حقودة تندفع من دون هدف هنا وهناك.

كان الموكب المتنافر الألوان يسيل عبر حقول الخريف الحزينة كأنه منجذب بشكل قاهر إلى مغناطيس خفي.

كان الخريف يضم الأشياء إلى حضن الضباب الكثيف. وكانت الرطوبة المتزايدة تنتشر فوق كل شيء. وبدا وكأن الخريف كان يتشكل بحقد حسب خطة دقيقة: كثافة رطبة قاتمة في الأحراش، بخار رمادي في الأودية، وصمت مشحون يسقط أطيافاً مرتعشة على الأفق. رغم هذا لم يسقط المطر.

كانت الأيام والليالي والفجر والغسق بينهما مثل رحلة تتم في الحلم حيث تصبح المسافة مادة طيعة، قابلة دوماً للتحوير. حتى صيحات الفرح التي كان يطلقها التافهون حول نار المعسكر في الليل كانت تمتصها المسافة فوراً وتعود إلينا وقد تطهرت بفعل كيمياء الخريف والكآبة، فتصبح أكثر بطأً وعمقاً مما كانت حين انطلقت من أفواه اولئك التافهين.

أحياناً، قرب الفجر، قبل أن يصحو المعسكر من رقدته بسبب ارتطام القدور الحديدية وقرع المهاميز وصهيل الخيول، تجتاح

التقوى قلب (كلود) فيوقظ سيده لصلاة الفجر. وفي ساعة الصلاة يكشف الكون تجلياته ويبهظ كل شيء بسلامه الذي لا يصدق. كان سلاماً حزيناً حزن التلال العارية التي لم تعد كذلك بل أصبحت روح التلال، إذ الأرض ترتفع بالشوق إلى السحب بإيماءة مغوية، شوق لا يرويه شيء أبداً.

وفي أعماق الصمت، أخذ الجسد ذاته يحن إلى الفناء. البخار الرقيق، شعر الجسد، هو الذي يناسبه أن يكون. ونفذت الصلاة إلى الرجل المصلي.

5

حدث بضع مرات أن هبط الليل والحملة لا تزال سائرة في وسط الغابة. وفي هذه الحال كانوا يشعلون ناراً كبيرة في منتصف المعسكر ويحيطونه بدائرة من النيران الصغيرة خوفاً من الأرواح مصاصة الدماء والذئاب والعفاريت.

إذا نظرت إلى أعلى فسترى أن ضوء النار يتوقف عند سقف أوراق الشجر. حولهم كانت الذئاب تعوي وعيون الثعالب تلمع وطائر يصرخ ويزعق. أم كان ذلك صوت الريح؟ أم هو تقليد شرير لصوت الثعلب والطائر والريح؟ حتى صوت سقوط أوراق الشجر كان يشير بشكل دائم إلى الوجود المؤكد لمعسكر معاد يهمس حولنا ويطوقنا. قوى العناية الالهية محاصرة.

العلامات الأولى للصراع الذي يقترب كانت واضحة. تنطلق الكلاب تنبح بجنون حتى يسكتها سهم أو ضربة حربة. فجأة قطع

حصان رباطه وانطلق يعدو في الظلمة كأنه قرر أن يتحول إلى ذئب. إحدى المومسات التي انضمت إلى الحملة انفجرت في صراخ موجوع وظلت هكذا لنهارين وثلاث ليال بتأثير تعويذة أو لأن روحاً شريرة كانت تضاجعها. وفي نهاية الأمر اضطروا أن يتخلوا عنها للشيطان الذي تقمصها. وفي أحد الأيام وصل المسيحيون إلى نبع ماء. ولأنهم كانوا شربوا وجعلوا خيولهم وخدمهم تشرب من دون أن يعرفوا أن النبع كان ملوثاً، فقد أثار اوعاجاً مذلة للرجال والحيوانات. من المؤكد أن يهودياً متنكراً اندس بين صفوف المسيحيين، يسير معنا ويلعننا.

حتى القرويون استقبلونا متجهمين. اضطر المسافرون أن يأخذوا عنوة المواد الغذائية والنساء والشراب من الفلاحين العنيدين. مرة أو مرتين حدثت مشاجرات عنيفة في القرى وأريق الدم المسيحي هدراً. بخل هذه المناطق كان خشناً وجهماً. حتى حملة من الفرسان تسافر باسم يسوع المسيح لتخليص الأراضي المقدسة لا يفتحون لها قبضاتهم المضمومة دون ضربة سيف تنتزع منها الحسنة بالقوة.

رغم ذلك ففي العديد من القرى كانت النسوة يأتين تحت جنح الظلام بمطلق حريتهن ويقدمن أجسادهن بصمت. هؤلاء القرويات كن ضخمات وقويات كالخيول. كان صمتهن وخضوعهن المتخشب البليد يحتمل عدة تفسيرات: الكبرياء أو التواضع، البلادة أو التمرد. وكان (كلود) محمولاً بتوهج حماسه المحموم يحاول نصح القرويات. كان يقف أمامهن ويتحدث بنشوة التقوى من مملكة

السماء، عن طبيعة الجسد الفاسدة، وعن السعادة التي تنتظر اولئك الذين يمنحون كل شيء بروح مرحة، لأن الذي يعطي يعطى إليه، وسوف يمنح الرحمة من كان يملك الرحمة.

من يستطيع أن يحصي تلك القرى المتناثرة على أطراف الغابة وفي الوديان التي ليس لها حتى اسم، في ممرات ضيقة يلفها الضباب وفي مجاري برك وأنهار منسية؟ كتب (كلود) في روايته للرحلة « انها إرادة الله أن يبعثر قطعانه حتى نهاية الأرض حتى يضم إلى صدره مرة أخرى في يوم القيامة القلائل المختارين والذين يستحقون ذلك بالفعل».

أما الكونت فقد كان يقود رجاله كما يقود مهره. لم يولهم انتباهه، ولكن حضوره لا يمكن تغافله للحظة واحدة. في أعماقه كان وحيداً، وكانت روحه في بعدها هذا تحاور ذاتها حول ضرورة الحب. أن تحب وتحب وأن تنتمي، يعني أن توجد. شعر الكونت برغبة جامحة لأن يقهر أو يسحق عقبة كانت طبيعتها خافية عنه حتى يأتي ذلك اليوم الذي يولد فيه من جديد. كانت أفكاره المهوشة تلعب بصور الموت والاغتراب والانفلات. كان مثل غريق يقاوم بكل ما تبقى له من قوة ليحرر نفسه من قبضة الماء. ولكنه لم يكن يعرف الماء الذي يغرقه ولا مدى اتساعه.

من الخارج كان يبدو صامتاً ويقظاً. كان يستجمع أقصى قدرة حواسه أملاً في أن يسمع صوتاً. وكان يخاف أن يفتح فمه ويتكلم خوفاً من أن يفوته الصوت: من يسمع لا يصغي. ورغم هذا فقد كان الكونت يمتلك سيطرة غريبة على الآخرين. رغم صمته كان

يكتسح ويملأ كل من حوله كنبات متسلق. ودون أن يتعمد ذلك كان يمسك ويتشبث بكل شيء ويتكئ عليه بكل ثقله. كان يعطي انطباعاً خاطئاً، كما يحدث مع كثير من أبناء طبقته، بأنه سيد يتسم بالانطواء والتردد، وبأنه لا يكترث عندما يسيء خدمه السلوك. ولكن النظرة المتفحصة تكشف أن القصب الذي يتكئ عليه ينحني تحته، بينما بقوة فطرته يلويها ويسحقها دون أن ينتبه لذلك.

بين آن وآخر كان يستدعي صورة القدس وهي تقترب منه، ولكنه كان يتخلص من هذه الرؤى الباطنية لأنها لم تكن تشعره بالاكتفاء.

في المعسكر أو حين يصلي، أو عندما يشرب الخمر أو ماء الينابيع الجبلية، يلقي الكونت قائمة من الأسئلة على الرجال كلهم بالتتالي محاولاً أن يكشف اليهودي المتخفي.

تحولت الآن شكوكه الأولى إلى يقين مطلق، كما يحدث أحياناً لرجل يظن أنه يسمع من بعيد لحناً مبهماً ولكنه ملح، فيجعله يتساءل المرة تلو المرة إن كان يسمع حقاً هذا اللحن أم هو يتوهم ذلك. وبعد فترة، وبفعل مجهود الإصغاء، يقود اللحن المستمع بلا هدف إلى أن ينبثق ذلك اللحن فجأة من داخله.

تفحص رجاله، كل واحد منهم، تعابيرهم وإيماءاتهم حين يأكلون أو ينامون، في نومهم وهم ممتطون خيولهم. هل هنالك من داع للبحث عن علامة في العالم الظاهري؟ وما اليهودية في اليهودي؟ من المؤكد أنها ليست شكلاً خارجياً بل صفة معنوية. إن المقارنة

حتى في مؤثرات الروح؛ إنها بكل بساطة هكذا: حضور مخيف وشرير. اليس هذا هو جوهر الخيانة: النفاذ، والكمون في الداخل والالتحام، وإرساء الجذور، والنمو في كل ما هو رقيق، مثل الاتحاد الجسدي؟ يوجد يهودي بيننا. ربما يكون قد جزأ نفسه، وتسلل هنا وهناك حتى عمت العدوى الجميع.

مرة، حين توقف الجيش عند المساء بجوار بقايا آثار رومانية تآكلت بفعل التحلل وجذور الأشجار القوية، التفت الكونت إلى (كلود) وسأله: أليس مكتوباً في أحد تلك الكتب أن الذئب يتسلل بنجاح إلى قطيع الخراف فلا يستطيع حتى الصياد أن يميزه؟

وجاءت إجابة (كلود) التي جعلها أكثر جودة في روايته للرحلة: «أجبت على هذا السؤال الذي ألقاه سيدي الكونت بأسلوب الحكاية أو الاستعارة الرمزية، بروح حكمة القدماء. أحلى التفاحات هي أول ما يفسد. كما أنّ الذئب الذي يلبس رداء الغنم من الطبيعي أن يغالي في تخفيه. وهذه علامة لنا: من الذي عانق مخلصنا وقبله على خده بالكلمات المعسولة ومظاهر الحب غير ذلك الذي باعه بثلاثين قطعة من الفضة، الخائن يهوذا الاسخريوطي؟ الشيطان خبيث يا سيدي وذكي ونحن المسيحيين أبرياء. دون رحمة الله فسوف نقع في الفخ، كلنا، في الفخ المنصوب تحت أقدامنا».

6

كـان بينهم زمـار يدعى (اندريه الغـاريه) . وكـان محبـاً للخدم والمنبوذين والعاهرات ويعتقد بقدرة موسيقاه أنْ تلين أقسى القلوب. بل إنه أجرى تجارب على الخيول والكلاب. أقسم ألا يأكل اللحم أو يشرب النبيذ ولكنه لم يلتزم بقسمه، كما وضع حجراً ثقيلاً بسلسلة وربطها بعنقه رغبة في أقصى درجات التواضع لأنه كان يرى نفسه «وديعا ومتواضعاً». ربما كان يحاول أن يطهر نفسه من خطيئة ارتكبها أو عزم على أن يرتكبها منذ زمن بعيد. وقد أطلق على نفسه اسم «المستحق الموت» ورغب في أن يقتل في الطريق إلى القدس. وقع الشك على هذا الرجل. بسبب رعبه، أو بسبب فرحه بالعذاب المطهر الذي ينتظره أصيب بهياج شديد وغطاه العرق. حين مرر يده على النار كانت مبتلة كأنه غمسها بالماء، فلم تنله إلا حروق يسيرة جداً، وانقسم الجمع في شأنه. ولكنهم عندما شاهدوه يتوسل إلى الكونت بأن يقتله لأنه ملوث عفوا عنه وتركوه يعيش، ولكنهم جعلوه تحت المراقبة.

كـان هنالك أيضاً ثلاثة رجال سلتيين (celts)[2]، وهم إخوة غير أشقاء. كانوا أبناء أم واحدة من ثلاثة آباء. لم يكن مسلكهم سوياً؛ إذ ينفجرون بضحك مرعب لأشياء لا تثير الضحك مثل ثعلب ميت أو قرمة شجرة بلوط احرقها البرق أو امرأة باكية. وكان من عادتهم أن يشعلوا ناراً صغيرة يجلسون وحدهم حولها بتكتم، متحدثين طيلة الوقت بلغة يجهلها الآخرون، مليئة بحروف صامتة غليظة النطق.

في كل يوم أحد كان الثلاثة يحتفلون بطقس غير مفهوم. فيجمعون أكواماً من الحجارة ويقطعون عنق عصفور ويسكبون دمه في النار التي اشعلوها بين أكوام الحجارة. ربما كانوا بهذا الطقس يستدعون روح أمهم.

كما كانوا يتميزون بقدرة غير عادية على إصابة الهدف، وهذا كان أكثر ما يجتذب نظرات الكونت الجليدية نحوهم. كانوا يمتعون أنفسهم بإطلاق سهم واتباعه بآخر يخترقه وهو منطلق. وحدث عدة مرات أن قذفوا بحجر في الظلام واسقطوا به طائراً ليلياً، كانت رفرفة أجنحة الطائر وحدها هي التي تقودهم إلى الهدف.

في إحدى الأمسيات جاءهم (كلود) الأحدب رسولاً وطلب إليهم أن يخففوا من ضحكهم الذي لا يتلاءم مع مهمة الحملة المقدسة، وأن يتوقفوا عن الحديث فيما بينهم بلسانهم الوثني، وان يسمحوا له بتفتيش متاعهم. وبالاضافة إلى هذا، فلقد قرر (كلود) أن يفحصهم حين يعبرون الماء ليتأكد من أنهم غير مختونين.

كان (كلود) يحب أن يرسل في مهمة كهذه لأنه كان يشعر بالإذلال حين ينفذها. لأن المتواضع سوف يترفع، وبسيط الروح سوف يسمو.

من (جرنوبل) واصلت الحملة مسيرتها نحو الشرق. اختار الكونت أن يبتعد عن الطرق الرئيسية. كان منجذباً إلى المناطق المنسية. بل إنه في بعض الأحيان كان يقرر أن يبتعد عن الطرق الضيقة ويسير عبر المروج أو الغابة. لم يكن يفضل أقصر الطرق بل

أكثرها هجراً. ومن ناحية فعلية كان الكونت يحدد طريقاً جديداً كل صباح. كان بكل بساطة يسير في اتجاه شروق الشمس إلى أن تلامس خوذته أشعة الشمس الغارية من الخلف. كان يقدم تفسيراً بسيطاً لكل قوانين الكون: كل من يسير نحو الضوء فهو يسير نحو المدينة المقدسة. وبقدر ما قدر لهذه الروح المرهقة أن تحب كان يحب القدس. كان يعتقد أنه في القدس يولد الإنسان ثم يولد مرة أخرى طاهراً.

وهكذا، وبينما كان الخريف يدق على ظهورهم بقبضات ناعمة كالمداعبة، اجتاز المسافرون سفوح الجبال، وتلمسوا طريقهم عبر الوديان الصغيرة التي يغطيها الضباب، وهبطوا المنحدرات نحو وادي نهر البو. لم يشاهد واحد منهم البحر من قبل. ربما تخيلوه كنهر عريض إلى أقصى حد. وإنهم لو اجهدوا عيونهم لاستطاعوا رؤية الشاطئ المقابل، واستطاعوا أن يميزوا الخطوط الخارجية للأبراج والجدران، وأبراج الكنائس الشامخة، وهالة مرتفعة من النور، بريق مقدس يخيم فوق مدينة الرب الواقعة فوق الشاطئ الآخر.

وخلال هذا كانوا يقتاتون بما يقدمه لهم القرويون بعد أن يشاهدوا السيف. كانوا يبتعدون عن المدن ومقاطعات النبلاء كأنما يتجنبون شباكاً منصوبة.

وفي عدة مرات التقوا بمجموعات من الفرسان متجهة إلى الأرض المقدسة. لم يمل الكونت أن ينضم إلى من هم أكبر شأناً منه، ولم يرضَ بأن يضم إليه من هم أقل شأناً منه. كانوا يريدون الوصول

إلى الأرض المقدسة كما غادروا أرضهم: قلائل ولكنهم طاهرون.

في أحد الأيام اضطروا تقريباً أن يشقوا طريقهم بقوة السلاح. قرب قرية تدعى (ارجنتيرا)، بجوار البئر الواقع في الطريق إلى القرية، فوجئ الكونت بقوة كبيرة من الصليبيين تفوق قوته ثلاثة أضعاف على الأقل. كان هؤلاء من الفرسان التيوتونيين يتبعهم جمهور غفير من الأتباع، يقودهم فارس شاب أشقر، متعال، يدعى (البرشت) من (برنزوك).

وكانت حملة ذات شأن: سيدات جليلات محمولات على محفات مغطاة بالحرير، مجموعة من السادة الطاعنين في السن في أثواب قرمزية ذات أزرار ذهبية، لوردات شبان يضعون على رؤوسهم خوذات طويلة على قمتها صلبان فضية، أتباع يرتدون ملابس مخملية، أعلام وألوية يحملها رجال في وجوههم ندوب. وكان هنالك جمهور من الكهنة والمهرجين والمومسات والوحوش والحيوانات. كان هؤلاء محمولين فوق عربات عريضة لم نشهد لها مثيلاً في بلادنا. وكانت جوانب العربات من كل الجهات مرسومة بمشاهد تفصيلية من حياة مخلصنا وتلاميذه، وقد جعل الرسام لوجوههم تعبيراً صارماً.

تلطف (البرشت) وهبط من فوق حصانه وقدم نفسه للسيد الذي كان أقل شأناً منه، وألقى تحيات متلاحقة بلاتينية منمقة، ثم ألحقها بكلمات الإغراء. كان من الواضح أنه يقترح إلحاق هذه الحملة الصغيرة التي صادفته تحت جناحه. ولكن بعد تبادل الحديث أبدى الكونت تحفظاً وبروداً وامتنع عن إيفاء واجبات الأخوة

المسيحية. واجه التحيات وكأنها عبارات وداع. ابتسم الألماني ابتسامة خفيفة وأمر بإنزال الغريب عن حصانه وضم حملته إليه بالقوة.

وقبل أن ينتهي من إصدار أمره علت ضجة السيوف تسحب من أغمادها. وأخذت الخيول تصهل وتتراجع، وراحت أجسادها تتموج مثلما يتموج الماء عند مرور النسيم فوقه. سرت حركة كبيرة بين الرجال، لمعت الحراب والخوذ، وعلى الفور رفعت الفرقة الموسيقية آلاتها وأخذت تعزف بفرح جامح. الحركة السريعة الصاخبة للخيول والأعلام والعتاد الحربي، الغبار والنداءات وصرخات الحرب التي انطلقت فجأة كونت مشهداً وحشياً وفائق الروعة في الوقت ذاته. كان ذلك يشبه الانطلاق لرقصة نابضة بحيوية عارمة في وسط تلك السهول الكئيبة. حتى صرخات الضحايا الأولى كانت تشبه من بعيد الضجيج المرح للمحتفلين. الجميع من دون استثناء حتى المحتضرون كانوا يتبعون نمطاً خاصاً من السلوك والحركة لا يخرجون عنه ولو بمقدار شعرة.

بعد قليل قال الفارس من (برنزوك): «توقفوا»، ثم صاح المنادي: «توقفوا».

وعلى الفور رفع الكونت الغطاء الأمامي لخوذته. توقفت الموسيقى وانتهى القتال. وقف الرجال في أماكنهم يتنفسون بصعوبة ويحاولون تهدئة خيولهم. بعد وقت قصير أخذوا يشربون، شربوا الجعة الألمانية ونبيذ (أفينو) من قوارير مشعرة. وعزف الموسيقيون، بمبادرة منهم، لحناً مختلفاً، بينما كان الضباط

يفصلون المشاجرات الغاضبة القليلة، وساد الضحك بين الجميع، جدف المحاربون وضحكوا.

بين الألمان كان هنالك طبيب مبارك. دار هو ومساعدوه في أرض المعركة والتقطوا الجرحى وفصلوهم عن الموتى. عالج الجرحى من الطرفين، وألقوا بالقتلى في البئر بعد أن أخذوا حاجتهم من الماء. الضحايا كانوا حوالي عشرة قتلى وكلهم من العناصر الدنيا من الطرفين، ولم يؤثر موتهم على مشاعر الأخوة التي انبثقت تلقائياً حول نيران المعسكر. الغافرون سوف يغفر لهم. عند المساء أقام الكهنة قداساً كبيراً، وذبحت الذبائح من الطرفين، تلوا صلواتهم وأكلوا وشربوا. قرب الفجر تبادلوا الخادمات.

عند اقتراب الفجر أيضاً سار (كلود) الأحدب -سكراناً والزبد حول فمه- إلى فارس (برنزوك) وقدم له خمسين قطعة من الفضة كجزية وكثمن للسلام لأن الكونت وجماعته كانوا هم الأقل قوة.

وحين ارتفعت الشمس حيا الفارس المسيحي الفارس المسيحي وسارت الجماعتان كل في طريقها يرفعون أعلامهم عالياً ويلوحون بالوداع. إذا كانت الخطايا قد ارتكبت، فمن المؤكد أن الدم والصلاة والفضة قد كفرت عنها. وعندما سقط المطر الخفيف الرقيق في وقت متأخر من الصباح مسح كل شيء بأصابعه الشفافة.

7

في اليوم التالي صادفوا بائعاً يهودياً جوالاً في الطريق. كانت معه عنزتان، ويحمل كيساً على ظهره. عندما هبط الفرسان التل نحوه لم يحاول الاختفاء. نزع قبعته، ابتسم بكل طاقته على الابتسام وانحنى ثلاث مرات، كل مرة أقرب إلى الأرض من سابقتها. توقفت القافلة، وتوقف اليهودي أيضاً ووضع كيسه على الأرض. كان المسيحيون صامتين، وكذلك عابر السبيل صمت ولم يجرؤ أن ينطق بكلمة. وهكذا وقف بجوار الطريق مستعداً للبيع أو الشراء، مستعداً للذبح أو لأن يقدم جواباً مؤدباً لكل ما يسأل عنه. وابتسم بالحاح.

قال (كلود) الأحدب:

- «يهودي».

فقال اليهودي:

- «تحياتي أيها المسافرون. فليبارك رحلتكم النجاح».

ثم تحدث بلهجة أخرى ولغة أخرى لأنه لم يكن يعرف أية لغة يستعملون.

قال (كلود) الأحدب:

- «إلى أين أنت ذاهب يا يهودي؟»

ودون أن ينتظر إجابة أضاف بهمسة ملاطفة:

- «الكيس... افتح الكيس».

وقبل أن ينهي كلامه انطلق السلتيون الثلاثة فجأة بضحك مرتفع صاخب، ضحك عنيف ولكنه خال من الكراهية كأن أحداً كان يدغدغهم تحت آباطهم. فتح البائع كيسه، ثم انحنى وأخرج ملء ذراعيه مجموعة من الحلي الرخيصة ولعب الأطفال، وقال بسعادة:

– «كل شيء رخيص، بملاليم. ونستطيع أن نتبادل، فتعطوني مقابلها ما لا تحتاجون إليه».

سأله (كلود):

– «لماذا تسافر يا يهودي؟ لماذا تنتقل من مكان إلى مكان؟»

قال اليهودي:

– «هل نحن وحدنا في العالم أيها الفارس الجليل؟ هل يستطيع الإنسان أن يقرر وحده هل يسافر أم لا؟»

ثم ساد الصمت. حتى أنصاف الأشقاء السلتيون صمتوا. وسار مهر الكونت، وكأنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، وتوقف في وسط دائرة الفرسان. انتشرت رائحة عرق الخيول حادة ومتوعدة. وازداد الصمت توتراً. أصاب العنزتين اللتين كانتا مربوطتين بحبل يمسكه اليهودي بيده رعب مفاجئ. الأغلب أن رائحة الخيول أثارت عندهما ترقب الشر فتحفزتا. انطلق منهما ثغاء ثاقب، زاعق، اشبه بتمزيق القماش، أو كأن طفلاً لسعه لهب النار.

ثم تبدد التوتر. رفس اليهودي إحدى العنزتين بقوة، كما رفس (كلود) اليهودي. فجأة أخذ اليهودي يضحك بكل قوته، فمه

مفتوح حتى نهايته. ثم، وهو يذوب تأدباً لا وجود له في عالمه، مسح عينيه بكمه وناشد الفرسان أن يقبلوا كل ما يملك هدية أبدية: العنزتين والبضاعة، لأن على المؤمنين من كل دين أن يحبوا الآخرين، فهنالك إله واحد لنا كلنا. هكذا تكلم وابتسامته تبدو خلال لحيته الحمراء، كجرح. أشار الكونت باصبعه بأنه يجب قبول الهدية. فأخذوا العنزتين والكيس وساد الصمت مرة أخرى. رفع (كلود) عينيه نحو الكونت. كان الكونت ينظر إلى رؤوس الأشجار، أو ربما عبرها إلى الأجزاء الظاهرة من السماء. مرت همسة عبر الأشجار، ترددت، ثم قررت الصمت. فجأة وضع اليهودي يده في ثيابه وأخرج لفة صغيرة.

«خذوا النقود أيضاً» قال اليهودي ومد اللفة للكونت الذي تناولها بحركة ضجرة وأغلق يده عليها، ودقق نظرته كأنه يحاول أن يكشف أية إشارة خفية تحملها اللفة العتيقة له. كان هنالك حزن بعيد في نظرة الكونت في تلك اللحظة، فكأنه كان يفتش عن شيء ما في أعماق روحه التي أخذ يلفها الظلام بالتدريج. ربما كان حزيناً من أجل نفسه. في النهاية تكلم وقال بألم مكبوت يقترب من المودة:

- «كلود».

قال (كلود):

- «هذا يهودي».

قال البائع:

- «لقد أعطيتكم كل شيء، والآن سوف أذهب في طريقي سعيداً وأدعو لكم بالتوفيق ».

قال (كلود):

- «لن تذهب ولن تباركنا».

- « سوف تقتلونني».

قال ذلك دون خوف ودون دهشة، بل بلهجة رجل بحث دون فائدة عن حل معقد لقضية معقدة وفجأة اكتشف لها حلاً بسيطاً. أجابه(كلود) الأحدب برقة:

- «أنت تقول هذا».(3)

مرة أخرى ملأ الصمت الهواء المحيط بهم. غردت عصافير خلال الصمت. وبسبب الخريف امتدت الأرض إلى أبعد مدى هادئة وعريضة، هادئة وباردة. هز اليهودي رأسه عدة مرات، مركزاً، متأملاً، وكأنه يريد أن يوجه سؤالاً. وفي النهاية وجه السؤال:

- «كيف؟»

«اذهب» قال الكونت. وبعد لحظة وكأنه يخشى ألا يصدر عنه صوت قال بإجهاد:

- «اذهب».

ظل اليهودي واقفاً كأنه لم يسمع. بدأ يتكلم ثم عدل. فرد ذراعيه ثم أعادهما، استدار وسار ببطء هابطاً التل وكأنه ما زال

يحمل كيسه على ظهره. لم ينظر حوله. أسرع خطاه بحذر. وعندما اقترب من انحناءة الطريق أخذ يركض، ببطء ومكر، انحنى إلى الأمام يجرجر قدميه كأنه مريض على وشك أن يتعثر ويسقط.

حين وصل المنحنى قفز فجأة وضاعف سرعته مختفياً بسرعة مذهلة راكضاً في خط متعرج، ولم يتوقف. ثم توقف لاوياً ذراعه خلفه، منتزعاً السهم من ظهره. ثم أخذ يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف وهو يمسك السهم بيديه الاثنتين أمام عينيه، كأنما يؤدي واجب المعاينة الدقيقة للسهم. ظل واقفاً إلى أن جاء سهم آخر أطار الذي في يده واستقر في جبهته. رغم ذلك ظل واقفاً مكانه حيث كان السهم بارزاً من جبهته. بدا ككبش عنيد يحني رأسه لينطح وقدماه مغروستان بقوة في الأرض. ثم أطلق اليهودي صرخة وحيدة، ليست طويلة ولا عالية جداً، ثم، وكأنه قد قرر أن يستسلم، تهاوى وسقط على ظهره. ظل ممدداً دون حركة أو ارتعاشة.

أخذت القافلة تسير. رسم (اندريه) الزمار صليباً باصبعه احتوى الحقول والغابة والسماء باتساعها، وتوقفت النساء اللاتي يتبعن الحملة للحظة بجوار الجسد الذي أخذ يبرد. انحنت واحدة منهن وغطت وجهه بذيل جلبابه. صبغ الدم كفيها فأخذت تنتحب. (كلود) الأحدب الذي سار هذه المرة في مؤخرة الركب استولت عليه شفقة وحنو فتبع المرأة وأخذ يهدئها بصوت عطوف وكلمات التقوى، فارتاح الاثنان. وفي تلك الليلة فتحا كيس اليهودي فوجدا بين الخرق القديمة قلائد وحلقاناً وصنادل نسائية وما شابه مما لم يشهد له مثيل في منطقة (أفينو). كانت جميلة للغاية ويمكن توصيلها أو فصلها بماسكة صغيرة جميلة رائعة ولكنها بسيطة.

8

الخريف راهب رمادي صبور، يرسل أصابع صامتة ثلجية ويسوي وجه الأرض. رياح باردة أخذت تهب من الجبال متجهة إلى الشمال. تخللت الريح كل ستر وغطاء وكان اللحم الإنساني يتيبس للمسها.

في أماكن عدة، عند الفجر، يغطي الجليد أجزاء من سطح الماء. بخار الأنفاس كان يتجمد في شعر كاهم، وأصبحت شفاههم زرقاء، متقرحة.

ولكن أمطار الشتاء الغزيرة لم تهطل. وكان الكونت يأمل أن تصل الحملة الشاطئ قبل أن تتحول الطرقات إلى طين مائع. كان البحر يقدم أملاً بالتغيير؛ بالراحة. توقع أن يرى في البحر المدينة المقدسة منعكسة تنمو كشعر غليظ ابراجاً عالية لا قوام لها، يلمع بياضها الشبيه بثلج دافئ، تحيطها جروف صخرية وصحارى تستحم بضوء الشمس- وخلف هذا الضوء ضوء آخر.

ولكن، في أحيان، يلسع القلب تردد غريب: هل توجد القدس حقاً على وجه الأرض، أم هي مجرد فكرة يفشل كل من يحاول أن يجدها متجسدة؟

كانوا يمرون عبر طبيعة رمادية رتيبة اشبه بممر طويل منخفض. كآبة الحدائق المتجمدة حول القرى كانت صامتة ورهيبة. لعين الغريب كانت هذه السهول تبدو مفتوحة من جميع الجوانب حتى الأفق. ولكنها كانت منغلقة، وسارت الحملة فيها دون طريق تؤدي إلى خارجها.

جميع الأشياء استسلمت للخريف، ففي بعض الأحيان كانت الحملة تسير ساعات متوالية فوق أوراق الشجر الميتة. كآبة قاتمة مسمومة سيطرت على الرجال والحيوانات - كآبة خفيفة يائسة بدا حتى الموت بالنسبة لها راحة هنيئة. وكان البساط النتن الناعم المكون من أوراق شجر التفاح المتعفنة والأعشاب المتحللة يهس تحت الأقدام خالقاً لحناً ثقيلاً رتيباً كان بعد ساعات قليلة يثير عند الفرسان والفلاحين مزاجاً من الجنون الصامت.

مثل كابوس عنيد كان يتقدم الركب الصامت يوماً بعد يوم فوق مساحات من صحارى خيالية كانت تتنهد وتتمتم مع كل هبة ريح. إن مادة الروح ذاتها كانت على وشك الجفاف والتحلل .

لم يعد أحد يشك بوجود يهودي متخف وسط الحملة. في المعسكر، ليلاً، كان الخدم والفرسان سوية يراقبون بعضهم، متظاهرين بالنوم، يفاجأون بكل سائر، يجاهدون لسماع كل تنهدة أو همسة، يصرخون في نومهم ويحاولون تفسير صرخات النيام. كان هنالك مشاجرات أحياناً، وحرص البعض أن ينام وهو قابض بيده على سكين. حيكت مؤامرات ورويت أكاذيب والجميع أحاطوا أنفسهم بالصمت. اختفى البعض ليلاً ولم يعودوا. جز خادم عنق آخر، أبلغ البعض فضرب حتى مات. ظل الزمار يعزف على نايه، ولكن الحالة المرحة كانت تمزق القلب وتزيد من مزاج اليأس.

خلال الطريق كان نتن القرى يشم. وكانت هنالك رائحة جثة حصان متعفنة أو رائحة جثة إنسانية متحللة، وفوقهم كانت سماء منخفضة كثيفة حيث تميل درجات اللون الرمادي نحو اللون الأسود.

في هذا العالم المسموم أصبحت حتى أصوات الأجراس البعيدة أشبه بالعويل. العصافير المتوحدة التي ظلت في هذه المناطق وقفت جامدة على أطراف الغصون المبلولة وكأنما يجري امتصاصها بالتدريج بواسطة عالم الجماد.

مروا فوق قبور يكسوها النبات الكثيف ووطئوا شواهد القبور التي تغطيها الطحالب والأشنة وقد انغرست في الأرض الثقيلة. فوق الشواهد صلبان خشنة معوجة: قطعتان من الخشب مثبتتان بمسمار خشبي. هذه الصلبان البدائية كانت تتهاوى بمجرد لمسها.

وعندما كانت الحملة تتوقف عند الآبار للاستسقاء، فإن الذين كانوا ينظرون إلى عمق الماء كانوا يشاهدون عنصراً آخر غير الماء.

بعيداً جداً، على سفوح الجبال السحيقة، كان بامكان المرء أن يشاهد بين كتل الضباب أشكال تحصينات مبنية من الحجارة -ربما كانت أديرة أو بقايا قلاع قديمة تهدمت حتى قبل دخول المسيحية. تحتهم كل النهر وفروعه تندفع بعنف في مجاريها المتشعبة وكأنها هي أيضاً تحاول أن تهرب.

طغت على كل شيء ساعة الغروب قوة مهجورة وشريرة وذات حقد لا حد له، والصراخ المذعور للطيور الجارحة والقطط البرية. كان الصدأ قد أخذ يغطي هذه المناطق تدريجياً، يتعفن معها إلى درجة الموت. وبهذا توقفت القدس عن أن تصبح كمقصد للحملة، أو كمسرح لأعمال مجيدة. حدث تغير. كان الرجال يقطعون الصمت الطويل فجأة ليقولوا «في القدس».

رجل واحد من بينهم أخذ يتبين من خلال الكشف التدريجي

للإضاءة الداخلية أن القدس التي ينشدونها ليست مدينة بل الأمل الأخير لحيوية ناضبة.

9

إن هذا الفصل من حكاية (كلود) يشهد بوضوح على عنف القوى المدمرة الذي ينبعث بشكل مستمر من الوجود الخفي لعنصر شرير تسلل بين الصليبيين. لم يكتفوا بالرقابة الخارجية فاقاموا أخرى داخلية. طلب إلى بعض الفرسان أن يتصنتوا من دون أن يلحظهم احد. وطلب إلى آخرين أن يراقبوا هؤلاء. وكان بإمكان (كلود) أن يبعد عن الكونت كل من يستريب فيه وأن يحيطه بمن يرضى عنه. وانتشرت دون ضابط المؤامرات والاتهامات الكاذبة والمكائد السرية. في هذا الجو الكثيف الخانق من الريبة والرعب الشرير انتعش (كلود) مثل نبات المستنقعات. غير أنه هو أيضاً أصابته عدوى الخوف الذي يزداد كثافة.

كتب (كلود):

« يوجد غريب في وسطنا. في كل ليلة، عندما ننادي باسم يسوع المسيح فهنالك صوت كاذب ينادي معنا، وهذا الرجل هو عدو المسيح. في إحدى الليالي، في وسط الحراسة الثالثة امتدت يد خفية وأطفأت جميع النيران، وجاءت من قلب الظلام صرخة في لغة ليست لغة المسيحيين. عدو للمسيح يختفي بيننا، ذئب بين خراف الرب. ان اليد ذاتها التي أطفأت النيران في الليل تقتل خيولنا أيضاً، التي تموت واحداً إثر الآخر بمرض لم تعرفه بلادنا.

عندما نصل القرى نرى أن القرويين قد تم انذارهم مقدماً ليخفوا الطعام والنساء والخيول في الغابة. اليهود في كل مكان يشعرون باقترابنا والريف المعادي لنا يؤويهم. يوجد شر في داخلنا. شخص بيننا ليس منا، لقد أرسلوه إلينا ليسلمنا إلى قوى الشر. يا إلهي ارأف بنا، امنحنا علامة قبل أن نفنى جميعاً جسداً وروحاً. ألسنا من أجلك نقطع هذا الطريق المليء بالمصاعب والعذاب؟ أليست مدينتك هي التي نسعى نحوها - وإذا لم ننته إليها فأين سوف ننتهي؟»

«إن أرواح رجالنا أصبحت تضعف من خوفها من المكائد التي تحاك في وسطنا. وهنالك البعض منا يدبرون لعودة بالخيول المتبقية والعودة إلى بيوتهم بوفاض خال. سيدنا الكونت يركب الآن وحيداً متقدماً عن الحملة بكثير ولم يعد ينظر حوله، وكأنه لم يعد يكترث إن تبعه الآخرون أو سار إلى القدس وحيداً».

«منذ ثلاثة أيام، في الصباح، أمر الكونت أفراد الحملة بالوقوف صفاً واحداً بادئاً بالفرسان ومنتهياً بالخدم والمتسكعين والنساء، وعاين كل فرد بنظر نافذ. وانتهى بأن نادى فجأة على اليهودي بأن يركع على ركبتيه في تلك اللحظة، في نفس المكان، مهما كان شخصه. ثم، بصمت كامل، أدار ظهره للرجال واعتلى ظهر حصانه ببطء كأنه مريض. وفي أول ضوء اليوم التالي وجدت إحدى النساء مجزوزة العنق، ورأس الصليب الذي تلبسه في عنقها مغروس في صدرها. أنا الذي أغلقت عينيها ونزعت الصليب من لحمها دون أن أمسح عنه الدم. يا إلهي، إلى أين تقود قطيعك،

وماذا سوف يصيبنا غداً وبعد غد ؟ »

ويكتب (كلود) مرة أخرى بروح الخضوع والخشوع أمام القضاء الإلهي:

« خلال هذا الصباح دعاني سيدي الكونت لأن الحق به إلى الجانب الآخر من التل. وعندما أصبحنا بعيدين عن عيون ومسامع الآخرين، قال لي : « كلود أنت تعرف فلماذا تظل صامتا ؟ » فاقسمت باسم المسيح وباسم اخت سيدي المتوفاة التي كانت زوجة لأبي قبل أن يتزوج أمي بأنني لا أعرف وأنني خائف كثيراً. ثم استمر الكونت في صوت عندما أذكره فإن قلبي يعتصر حباً ورعباً: « (كلود) ـ هل أنت حقاً (كلود) ؟ إنني أسجل هنا الكلمات التي صرخت بها للرب طيلة النهار: يا إلهي انظر إلينا. ان الشر يستهلكنا، خلصنا يا سيدي الرب، أنت تسمع ولكنك لا تنتصر لنا. قد نكون خطاة، ولكن ارأف بنا. ألسنا إليك أنت نسير ليل نهار ؟ »

سعيد هو الرجل الذي يسكب قلبه في صلاته. حتى لو صرخ من الأعماق فصلاته سوف تستجاب.

بعد بضعة أيام، عندما تجنبت الحملة (تورتونا) ودارت حول أسوارها وسعت نحو الشرق، توقف الوباء الذي أصابها وتحسن الجو فأصبح يميل قليلاً إلى الدفء. وسلم الفلاحون عدداً كبيراً من الخيول كانت تكفيهم للركوب إلى أن يجدوا خيراً منها. في إحدى القرى نجح السلتيون الثلاثة في أن يشتموا رائحة كميات كبيرة من الأطعمة: جبن وشوفان وعلف وجدوها في قبو واحد واستولوا عليها

وكلفت ضحايا قليلة جداً. وفي الطريق صادفنا رجلين يركبان بغلين محملين بقوارير النبيذ واستمتعنا بالنبيذ لعدة أيام. كما صادفنا راهباً متسولاً رشنا بالماء المقدس وجدد بركات الكنيسة.

وهكذا بدا وكأن الحظ قد أخذ يواتينا، فزدنا من صلواتنا وشكرنا للرب. ولم تتوقف أمطار الشتاء وحسب، بل يبدو أنها ابتعدت، لأربعة أيام شمس لطيفة كانت تشع علينا. وزع الكونت قطع الفضة، وسمع صوت الغناء مرة أخرى عندما بدأنا مسيرتنا في الصباح، وعزف لنا الزمار الحاناً مرحة على مزماره. وفي الوقت ذاته ابتدأنا نقترب من تجمعات اليهود.

10

أخذنا نقترب من تجمعات اليهود وأصبحت أيامنا أكثر إشراقاً. رافق نشاطنا روح جديدة: تحسن النظام، كما عاد إلى الحياة الدأب على العمل وروح الابتكار. بعض النيران التي اشعلناها أشعلت قلوبنا بالفرح، ونشوة الصيد[4] نبهت حواسنا المتبلدة.

لم يكن طموحنا زائداً عن الحد. تفادينا يهود المدن لحملات أقوى منا. قادنا الكونت عبر المناطق البعيدة ليطهر أبعد الأطراف - يهود قرية منسية أو خان بعيد عن الطريق العام أو طاحونة مختفية في الوادي. ولهذا وقع بين يدي الكونت عصابات من اليهود الهاربين والجوالين. ولم يمنع هذا الحملة من مواصلة طريقها شرقاً الذي لم تتحول عنه لملاحقة الهاربين أو للاستيلاء على الغنائم. لقد كانوا يشقون تلماً واحداً، مستقيماً، ليس بالغ العرض. لم ينظروا

حتى وراءهم ليروا ما تم إنجازه وماذا تبقى لينجز. لقد فرض الكونت نظاماً صارماً على الرجال ولم تتوله شهوة الدم. لا يعني هذا أنهم تجنبوا النهب، ولكن الكونت أمر رجاله ألا يستمتعوا به. ولكن المتعة المكبوتة كانت تهمس بإغواء.

يذكر (كلود) في حكايته امرأة يهودية تشبه ذئبة اقتلعت هي وطفلها من جحرها القائم في أعماق كوم من القش. كانت تزمجر وكانت أسنانها أكثر بياضاً وحدة من الأسنان الآدمية. فحت بعنف كأنها كانت تزمع أن تعض أو تبصق السم. كان صدرها يرتفع وينخفض تحت ردائها البني بهياج لم ير (كلود) مثله إلا في لحظات النشوة الجسدية، أو عند النساء اللاتي شاهدن رؤيا يأمرهن فيها أحد القديسين بأن تلقي نفسها في النار.

لقد استطاعت هذه اليهودية أن تبعد عنها حلقة المسيحيين التي أحاطت بها. لم يجرؤ أحد أن يقترب إلى مسافة تطوله فيها اليهودية بمخلبها أو بأسنانها. وقفت وحيدة في الوسط ووجهها يحمل تعبيراً أشبه بالتثاؤب. بعد قليل تبين أنها لم تكن تتثاءب. أخذت تدور ببطء، وهي منحنية، تمسك بالطفل بمخالب يد واحدة، أما الأخرى فكانت تمدها إلى الأمام، وكانت أصابع اليد معقوفة كمخالب طير جارح. كانت حركتها تشبه حركة العقرب أو السرطان. رغم أن (كلود) قد تخيل أن هذه اليهودية سوف تنقض وتنهش عيونهم بأظافرها، ولكنها لم تفعل. وألقت طفلها الباكي فجأة بين ذراعي أصغر السلتيين الثلاثة وارتمت على الأرض تتدحرج كأنها مذبوحة. فعلت كل هذا وهي صامتة تماماً، من دون

أن تتضرع أو تصرخ، ولكن بتشنجات عنيفة. ناضل (كلود) الأحدب بكل قوته ليكبح البكاء الذي ارتفع إلى حلقه. رغبة عمياء محمومة كادت ترغمه أن يقع على الأرض ويتدحرج مثلها وأن يقبل أخمص قدميها إلى أن تدوسه بهاتين القدمين. اشتعلت هذه الرغبة في أعماقه كغضب جامح، ولكنه لم يكن غضباً. انسابت دموع ساخنة من عينيه واختفت في لحيته حين أنقذ هذه الذئبة من عذابها بضربة سريعة حادة، وبهذا أراحها من موت طويل ممتد، كما أراحها من مشاهدة سحق رأس الطفل، وهومشهد قبيح ومنفر للأرواح الحساسة.

كانت المنطقة منقطة بالتجمعات اليهودية. هنالك مدن هنا فتحت أبوابها واسعة لهم متحدية اللعنة القديمة. لقد غرس هؤلاء اليهود جذورهم في العمق ليمتصوا النسغ الداخلي فازدهرت أحوالهم بحيوية مدهشة. إنهم يمتلكون قدرة هائلة على الامتصاص والنمو. في هذه القرى أعداد كبيرة من اليهود انتشرت تستأجر وتؤجر. وهم يحتكرون بشكل مطلق هنا الزيت والكتان. وبتخطيط محكم صارم أخذوا يتوسعون نحو الصوف والشمع، كما راحوا يضعون مجسات لاختبار تجارة العطور والجعة، والأخشاب والبهارات.

يبدون هادئين من الخارج ولكن التفحص الدقيق سوف يكشف تشنجات عصبية وعضلية في وجوههم كتموجات جلد الإبل، يقف متماسكاً، ولكنه يستعد للهرب. لغتنا تنساب من أفواه هؤلاء اليهود ناعمة كالزيت، وتدخل فضتنا إلى أيديهم من تلقاء ذاتها،

متبعة الاستعداد الطبيعي للأشياء لأن تهوي إلى الأسفل.

اليهود محنكون بالجمع والاقتناء، في تبادل شيء بآخر في اللحظة المناسبة أو في إخفائه لحين الوقت المناسب. هم بارعون بشكل شيطاني، مراوغون كما هي طبيعة جنسهم. حتى الأرض ذاتها تبدو مطواعة تحت أقدامهم، كما ينبعث منهم ليغطي كل شيء صمغ دبق شفاف. يستطيعون أن يثيروا في قلوب المسيحيين الحنو أو الثقة، الرعب أو الانبساط حسبما يعن لهم. هم الزمارون ونحن المزمار في أيديهم، نحن الدببة الراقصة.

كثير من فلاحي هذه المنطقة وضعوا ثقتهم باليهود. هنالك فرسان أغروا رفاقاً بأن يتبعوهم إلى القدس بالفضة التي اقترضوها من اليهود. جروح سيدنا ومخلصنا انفتحت مرة أخرى بسبب هذا المشهد وانسكب دمه من جديد. حتى السادة العظام، حتى الكهنة والمطارنة تعودوا في هذه الانحاء أن يدعوا اليهود إلى بيوتهم، غافلين عن أنهم بهذا يبيعون أرواحهم ببطء. وذهب البعض إلى حد أن يوكلوا لليهود مهام الحكم، ولذا يحدث هنا أن بعض اليهود ارتفعوا إلى مستوى يستطيعون به أن يمارسوا التسلط من وراء ستار، وان ينشروا اخلاقياتهم بين المسيحيين. مرتين واجهت حملة الكونت في طريقها حراساً مسلحين وحتى بعض الكهنة الفاسدين، ارتفعت سيوف هؤلاء لتصبح حاجزاً بينه وبين اليهود مغفلين لعنة الرب.

وباختصار فإن هؤلاء اليهود قد خلقوا دولة خفية تحت أقدام الصليب، موسعة سلطان القوى المعادية في أرض المسيحيين.

ولنستعر تشبيهاً يتردد كثيراً في حكاية (كلود) الأحدب، إن اليهود مثل عصابة من المغنين يتجولون بصخب في غابة بدائية. لا شك أن في ألحانهم حلاوة وحزناً ساحرين، ولكن الغابة لها موسيقاها الخاصة بها، عميقة ومكتوبة، وهي لن تسمح طويلاً ببقاء لحن آخر.

وفي أحد الأيام كان الكونت يسير في مقدمة رجاله فأتوا إلى عدد من الأكواخ يسكنها اليهود، على أطراف قرية تدعى (أريوجولو).

وكما يحدث كثيراً تشمموا أخبار القادمين فهربوا إلى الغابة. وأتى رجل واحد يتحدث باسم الجماعة، ليقابل الفرسان، ويتفاوض على فدية وليطلب الرحمة. كان يريد أيضاً أن ينقذ بعض الكتب من النار التي يعود بعضها، كما ادعى، إلى ألف عام. كتب يهودية مكتوبة بالعكس[5].

كان هذا الرجل طويلاً ونحيلاً، له لحية شقراء وكتفان قويان. حتى في سلوكه لم يكن هنالك ما يشير إلى أصله الوضيع. حركاته قليلة ومقتصدة، يبدو هادئاً، وتحدث بإيقاع محسوب لرجل يحب الكلمات، وهو سيدها. خرج من البيت وتوجه إلى قادة الحملة من الفرسان واستفسر عن القائد. وقبل أن يجدوا الوقت للرد استقرت عينه على الكونت وقال (إنه هو)، ثم سار نحوه بجرأة بين الخيول يكاد يلمسها بكتفيه، ثم توقف أمام سيدنا الكونت وقال:

- «كنت أبحث عنك يا سيدي. هذه حملتك».

ضيق الفارس عينيه ليتأمل الرجل الذي أمامه، وعلى الفور لمس

قوة عزمه. لوى شفتيه وقال:

- «كنت تبحث عني».

- «كنت أبحث عنك يا سيدي».

- «ماذا تعطينا يا يهودي وماذا تأخذ منا؟»

- «بيتاً مليئاً بالكتب. وإذا كنت بحاجة كبيرة إلى النقود، فنريد بيوتنا كلها. سوف ندفع نقداً».

ابتسامة خفيفة، وللحظة اكتسى فمه تعبيراً فلاحياً نهماً وحاقداً. ثم تجمدت نظرته، وقال ببرود:

- «ذهب. النقود النحاسية لا تستعمل في المكان الذي نقصده».

قال الرجل:

- «كميات كبيرة من الذهب».

قال الكونت:

- «يا يهودي، توقف عند البيت الذي تريد انقاذه من النار، والنار بقدرة الله سوف تختار ما تحرقه وما تبتعد عنه».

قال اليهودي:

- «حسن جداً. اشعلوا النار من الجهة الجنوبية، فالريح تهب من الشمال، وبقدرة الله فإن هنالك نهراً عريضاً بينهما. النار، كما تقول، سوف تختار بقدرة الله ما الذي تحرقه وما الذي تتجنبه».

صمت الكونت. مرة ثانية مرت ابتسامة جافة على وجهه، ثم

قال بصرامة أشد:

- «يا عزيزي اليهودي، أنت لست خائفاً. لماذا أنت لست خائفاً مني؟»

وكأن حنواً مفاجئاً أصابه أطلق اليهودي ضحكة مشرقة قصيرة، تتحكم في إيقاعها بصيرة داخلية عميقة وأجاب:

- «أنا أعطي يا سيدي وأنت تريد أن تأخذ».

- «وإذا أخذت ثم قتلت وحرقت بعد ذلك؟»

- «ولكنك سوف تقسم يا مولاي باسم مخلصك. قبل أن تقسم لن ترى الذهب».

- «وإذا أخذتها بالقوة يا يهودي؟»

- «أنا وأنت يا سيدي بين يدي قوة أعظم منك ومني».

قال الكونت بنبرة قاتمة:

- «حسن، أعطني الذهب حالاً. تكلمت بما فيه الكفاية. أعطني الذهب، الآن».

حين قال الكونت هذه الكلمات أخذ الفرسان القريبون يلمسون اليهودي بخفة برؤوس حرابهم وكأنهم يختبرون سمك قشر شجرة.

قال الرجل :

- «الذهب مدفون في الحقل، والحفرة المدفون فيها مدفونة في قلبي».

قال الكونت:

- «إذن انهض واذهب إلى المكان الآن».

هز اليهودي رأسه باستسلام، وكأن أمله قد خاب بسبب ضيق الأفق الذي أبداه محدثه. قال بتقصد مبالغ فيه بالأسلوب الذي يستعمل مع فلاح عنيد:

- «ولكنني يا سيدي لم اسمع يمينك. وقتك قصير وطريقك طويل».

قال الكونت:

- «سر، وقدني إلى البيت الذي تحدثت عنه».

أشار اليهودي الوسيم بذقنه:

- « ذلك هو البيت. الكتب هناك».

رفع الكونت صوته قليلاً ونادى (كلود) الأحدب وقال:

- « (كلود) ، احرق ذلك البيت وكل البيوت الأخرى، وتأكد من أن اليهودي لن يقتل بسرعة ولكن ببطء وصبر، وفي الوقت ذاته قل لهم أن يوجهوا الخيول إلى الحقل لترعى وارسل الخدم ليغتسلوا قبل الصلاة - البارحة ارتفع نتنهم إلى السماء».

عند الظهر بدأوا يضربون اليهودي. وفي المساء لسعوه بقضبان محماة. ثم نقعوه بماء مالح وسألوه عن يهوذا وبيلاطس . ثم أخرجوه من الماء المالح وسحقوا خصيتيه كما قرأ (كلود) في كتاب وهو صبي، وكما قرأ في نفس الكتاب جعلوه يشرب من الماء المالح

الذي غمسوه به. ثم وهم يقطعون أصابعه سألوه عن موضوع الأنماط المجازية، والحكايات عن يسوع المسيح في العهد القديم الذي يمتلئ بها. عند الغسق سملوا عينيه. وفي النهاية فتح فمه وسألهم أنه إذا دلهم على موضع المال فهل يعدون بقتله فوراً؟ وعد (كلود) بذلك.

حفروا في الظلام واكتشفوا الكنز، وتبينوا أن اليهودي لم يكن يكذب وأن الكنز كان كبيراً بالفعل. ثم طلب من الكونت أن يفي بوعده. قال له إن الوقت تأخر ولا يصح تأخير صلاة المساء أكثر من ذلك لأن النار التي أحرقت القرية أخذت تخمد والدخان أخذ يدخل صدورهم ويؤذي عيونهم. ولهذا غرسوا حربة في جسد الرجل. اخترقت ظهره وخرجت من صدره. ولكن اليهودي استمر يزحف هنا وهناك ودمه ينبثق كالنافورة، وهو يواصل همهمته. ولهذا ضربوه بعصا الفأس على رأسه واعتبروه ميتاً. ولكن اليهودي لم يكن قد مات بعد. تنهد بعمق من خلال ثقب في الرئة، وخرجت فقاعات وردية من الثقب ثم انفجرت. طعنوه في الصدر ولكنهم من الواضح أنهم أخطأوا قلبه. لقد رفع هذا الحطام الإنساني ساقه في الهواء وأخذ يرفس بعنف. الرجال المتجمعون حوله تشاوروا ومسحوا العرق من على جباههم ثم أمروا الخدم أن يلقوا بالرجل في النار المدخنة.

ولكن الأرقاء الجهلة استولى عليهم خوف خرافي المصدر وتوهموا وجود سحر أو معجزة، ورفضوا بعناد أن يلمسوا اليهودي بأيديهم. وأخيراً اقترب الزمار الذي يحمل حجراً ثقيلاً حول عنقه

على الدوام ليكبح شهوات جسده. أتى الزمار بعصا طويلة ودفع بها بقايا الجسد النابض إلى بركة ضحلة. وتمدد الناطق باسم اليهود يطلق الفقاقيع في الماء. حتى بعد انتهاء صلاة المساء لم يكن قد أسلم الروح بعد.

أمر الكونت بمواصلة السير في الليل من دون راحة على ضوء القمر، لأن القمر طلع أصفر ومدوراً وذا حجم هائل. فكر (كلود): وعدت ولم أف بوعدي لأن المهمة لم تكن لبشر، وإذا كانت تلك ارادة الله، فمن أكون أنا؟ لا تسقط ورقة شجر على الأرض دون قصد، وليس لنا أن نعرف ذلك القصد. بارادة الله مات مخلصنا على الصليب لأن الله أراد للخائن أن يخون المسيح حتى يحمل عنا مخلصنا ذنوبنا وآلامنا.

لأربعة أيام متوالية واصل الكونت ورجاله حرث البرية بإيمانهم بتطهير العالم من القوى المعادية. وفي نهاية الأيام الأربعة أخذت أمطار الشتاء الغزيرة تهطل بقبضات من غضب مثلج.

11

أمطار الشتاء الغزيرة هطلت بعنف، وبدا كأن قبة السماء نفسها تتداعى عندما يهطل رصاص الفضة الرمادية. زأرت العاصفة بجنون في الغابة، واقتلعت الأشجار القديمة، وحطمت الأسقف، وجلدت سطوح البحيرات حتى الجنون.

كانت العاصفة غاضبة إلى حد أنها أمسكت بالبط البري وقذفت به جانب الجبل. والماء، الذي يكون في العادة عنصراً هادئاً

وطيعاً، تحول فجأة إلى قبضة وتحدى الصخور الهائلة وأسقطها بضربة واحدة. كل الأنهار جرت معربدة تخبط شواطئها بعربدة وهياج.

لمع البرق بجنون من الأفق إلى الأفق راسماً أشكالاً مهلوسة تعشي البصر على عرض السماء كلها. وأعلن الرعد بدوره موافقته بتحد مشؤوم.

وتهز الريح برج الكنيسة بعنف، تلعب به قليلاً، لم تنتزعه كلية. يطير الجرس المحمول بالهواء بسرعة، يدق دقات عالية مهجورة فوق التلال والأنهار والغابات إلى أن يضيع في المدى.

في وسط العاصفة بالإمكان تمييز وجه واحد على الأقل من النظام الإلهي. كل هذه القوى العاتية تعمل بانسجام لتسوي كل شيء حولها، تمحق وتقتلع كل شيء مدبب بكل قوة اندفاعها، تطوي دون شفقة كل شيء مستقيم أو بارز، تنهش كل ما له شكل زاوية لتجعله مقوساً.

اجتاحت الريح التراب وسوت اكوامه بالأرض وكذلك أمواج البحيرات وظهور الرجال الذين يسرعون بكل طاقاتهم ليجدوا ملجأ.

هذه القوى الهائجة التي انفجرت فجأة لتخضع الأرض كلها، كانت معادية للصليب والبرج والحرية والحصان والإنسان.

بعد الظهر غيرت الريح اتجاهها. امتلأ الهواء بندف الثلج الكبير. بعد الثلج جاء البرد. عند الغروب كانت الأرض بيضاء.

طيلة الليل كان البرق يلعب على سطح الثلج بشعلة زرقاء لامعة. شعلة زرقاء مخيفة. في اليوم التالي واصل الثلج السقوط. كل ما خلفته العاصفة واقفاً أحاط به الثلج وحناه. الأرض كلها خضعت بصمت وتحولت. لا شيء يستطيع الوقوف في وجه القوى المعادية. قوة جديدة سيطرت على الأرض.

في ذلك البريق الشاحب ركعت كل الجماعة المصابة على ركبتيها في الثلج وصلت للمخلص. وهم ضائعون في تلك البيداء اللامعة، مكفنون في ضفاف السحب الرمادية التي تكتسحها الريح، ربما تكونت صورة في أذهانهم لرؤيا غير مؤكدة عن القدس.

12

ساروا حتى ساعة الغسق يبحثون عن مأوى من تلك العناصر البسيطة التي هاجمت الجسد ونفذت أعمق لتقهر الروح الحساسة: عناصر المطر المنسكب، الريح التي تشبه حد السكين، الضوء المعمي والصمت. كل شيء تعرى. مجموعة من الهاربين المتجولين. هرب طويل. مصيدة.

بعد الظهر وجد المتجولون سقفاً يؤويهم. كان ديراً مهدماً مهجوراً، حصناً حجرياً فوق صخور منحدر الجبل البعيد. قبل سنين عديدة، ربما في زمان الطاعون، هرب آخر الرهبان ليموتوا في مكان آخر.

كان بناء مشيداً حسب خطة مضحكة كئيبة. جدار مائل بشكل خطر لا يتصل بأي بناء، بل قائم بذاته حيث بنيت في عرضه أعداد

كبيرة من الزنازين المنخفضة والممرات الدائرية، درج حلزوني، معتزلات، أبواب، سراديب تحت الأرض تتوه في الظلمة. كانت هنالك كنيسة كئيبة أيضاً، طويلة دون تناسب بين أجزائها، كممر ضيق محني لا يؤدي إلا إلى ذاته. كان شكل المكان بالذات تستهلكه تناقضاته.

نهش الإهمال كل شيء: الجدران الحجرية البدائية والكتابة اللاتينية المحفورة عليها، التي تتخللها الشقوق والحفر تحكي بجهامة عن بعض الموتى وخداع المتع الدنيوية.

على باب الدير يمكن قراءة ملحوظة مكتوبة باللهجة المحلية موجهة إلى الذين ينوون غزو المكان، تتوسل إلى مشاعرهم الدينية، تلعنهم بعنف وتحذرهم من خطر الطاعون. وقد تآكلت الكتابة بفعل العفن والصدأ.

حطم الكونت ورجاله الباب ودخلوا. أصدر الكونت أوامره بانزال الحمول، وإشعال النار، والمكوث حتى تصبح الطرقات صالحة للسير. كان مهموماً أو ربما منشغل الفكر عندما أصدر تعليماته، يلقي بالأوامر هنا وهناك حول مخصصات الغذاء، وحول الاعتناء بالخيول، وبضرورة الاعتناء بالحبال، يرافقها تأملات مبهمة حول موضوع المشي على الماء، وارسال رسائل اليونانيين، وملاحظات حول النوم كمهرب بسيط من المكان والزمان، مضيفاً تعليقاً غامضاً عن الوباء الذي أصاب الكروم وعن الطبقات العليا المتعفنة القائمة تحت السطح الظاهري للأرض.

لم يتكلم الرجال، ولكن الجدران أسمعت أصواتها. عندما تحدث

الكونت رددت الممرات والأبواب والمهاجع صدى أجوف. أعادت صدى الكلمات مضخمة كلمة هنا وكلمة هناك إلى درجة مريبة. وعندما صمت الكونت زاد البناء حدة الصمت.

كانت الجدران في قبضة تحلل تدريجي. الأعشاب الضارة استقرت في الشقوق بين أحجار الجدران، تقضم بنهم العفن، فأصبح نموها المتكاثر يدفع الأحجار العريضة إلى أعلى. وبينما كانت هذه الأعشاب تشق طريقها كادت تبدو مخوضة في الماء بضجيج، كأن البناء مكون من عظام مملوءة بالنخاع الذي يمتصه العشب بشهية.

والروائح. رائحة عفنة نافذة لبخور قديم ركدت في شقوق الجدران كانت تهب عليهم ثم تذهب بالتتالي.

انتشر الخدم في المنتجعات والممرات دون أن يفتشوا أو يجدوا شيئاً، يفاجأون كلما تلاقوا مع بعضهم فجأة في انحناءات السراديب، يحاولون أن يخلقوا الصدى فترعبهم النتيجة، وكانوا يشعلون النيران في الأماكن المتسعة. انتشر الدخان على الأرض فازعج حشرات هارية وطيوراً برية وخفافيش مخيفة. بعد مضي عدة أيام أصبح من المستحيل تعداد الرجال أو جعلهم يلتزمون بالنظام. واحد أو اثنان أصيبا بجنون صامت فأخذا يتجولان في الممرات المظلمة دون مشاعل إلى أن تلاشت صرخاتهما وطواهما النسيان، فقدت الحملة القدرة على عد الأيام .

وراء فتحات البناء امتدت مملكة الشتاء إلى مسافة بعيدة، ومساحات غير نهائية مغطاة بالثلج حيث كانت تعزف الريح لحن

الظلام. اندفاع المياه دمر جميع الجسور، وأصبح واضحاً أنه لا أمل في النجاة حتى يحدث تغيير ما.

طيلة النهار كان الرجال يلعبون بالنرد. عندما يحل الظلام كانوا يشعلون النار التي كانوا يغذونها بتحطيم الأبواب وانتزاع الإطارات بفؤوسهم. وبعد ذلك أحرقوا الأثاث ومحتويات الكنيسة. وفي النهاية أخذوا يحطمون عوارض السقف الخشبية لاشعال نار أكبر حتى يدفعوا عنهم التيارات الباردة التي كانت تهب عليهم من السقف الذي كانوا يدمرونه تدريجياً.

كانت عوارض السقف رطبة ومتعفنة، وحين تحترق تصدر طشيشاً هائجاً، هامساً وكأنها رجال يشوون أحياء في كل ليلة.

وبسبب الكسل والملل تحلل الخدم من التزاماتهم بالتدريج. بدأ تحللهم بسبب الإكثار من شرب الجعة، وعندما نضب مخزونها تضاعف تحللهم بسبب الحاجة إليها. بعد أن أصبح الحصول على زوجات الفلاحين مستحيلاً تبين أن عدد النساء المرافقات للحملة قليل جداً. فدار الشجار حولهن ومعهن إلى أن مات بعضهن وهرب الباقي إلى الأرض الثلجية. إحدى النساء قتلت ثلاثة من زميلاتها قبل ان تختفي في فجوة في الجدار. وعندما وجدوها قطعوا عنقها.

حتى بعد أن غادرت النساء لم يغير الرجال سلوكهم. امتلأت الجدران المغطاة بالسخام بالرسوم البذيئة. هنا وهناك -عندما لم يكن أحد يراقب- يقوم رجل بتدنيس الصليب حتى اضطروا أن يكتفوا بالصلبان الحديدية ويرموا الخشبية في النار.

الصلاة وحدها التي كانوا يؤدونها بحماس يقترب من التعصب الأعمى. في الصباح والمساء كانوا يخرجون من مخابئهم ويجتمعون سوية ليصلوا بنشوة. وفي الأيام التي كانوا يعتبرونها، حسب تذكرهم المتناقض، أيام الأحد كانوا يمضون نصف النهار بصلاة حارة: كانت عناصر الفئات الدنيا تنفجر باكية حين تصلي. في بعض الأحيان كان الكونت يلقي خطاباً محموماً، غير مترابط الأجزاء يحض رجاله فيه على حبه، وعلى حب بعضهم وحب خيولهم التي تهلك في البرد وحب أجسادهم ودمائهم، لأن جسدهم ودمهم ليس ملكهم. أما (كلود) الأحدب فكان يزيد قوته باستطراد. شجع بعض الخدم أن يأتوا إليه وأن يعترفوا بخطاياهم القديمة وكان ذلك يثير فيه فرحاً جنونياً. في حكايته نتلمس افتتاناً مرضياً بطبيعة الجسد وخواصه.

مرت أيام وأسابيع. آخر أفضل عناصر الجماعة كانوا يختفون في الثلج عائدين إلى بيوتهم. الباقون أخذوا يصارعون أعداداً كبيرة من الغربان لجأت إلى الدير هرباً من البرد. كانوا يقتلونها بالسهام والحجارة، ولكن غيرها ظل يأتي إلى أن ضجرت الروح وانهكت منها.

يوماً بعد يوم، في الخارج، ظل الثلج الناعم الطيني يتكوم على الأرض، وفي الليل كانت الريح تصدم الجدران بقسوة، مقتلعة الحجارة والعوارض المقلقة.

وأسوأ ما في الأمر أن الكونت أخذ يتغير. استولى عليه حنو

متزايد كل يوم. شيء غريب، نوع من التردد يشبه الرقة اجتاحه بغتة.

13

كان يستيقظ من نوم طويل (كان ينام فترات طويلة في الليل والنهار) ثم ينهض ويقوم بممارسة أفعال العطف. أولاً، أزال جميع شكوكه وبدا فخوراً بالعدد القليل من الرجال الذين سوف يرافقونه إلى القدس. بحث عن مناسبات يمارس فيها العفو والغفران. إذا رأى رجلاً يضعف كان يضع يداً على كتفه ويحدثه برقة واقتضاب عن الخطيئة. أصبح يخاطب أحط الأشخاص بقوله «يا أخي». وبين حين وآخر كان يقوم بزيارات مهتاجة إلى فرسه فيسقيها من كفيه وينظفها بإصبعه. وفي مرة جمع كل الرجال في الكنيسة المهدمة وأقام نوعاً من الصلاة وأعلن بوقار اتخاذه (كلود) ابناً له. ولولا أن (كلود) قد منعه لتبنى عدداً من الحاضرين. مظهره كان يشير إلى أنه مريض، ولكن قوته الجسدية كانت تفوق جميع رجال الحملة بما فيهم السلتيون الثلاثة. خطر له أن يقيم منصة في أحد أطراف الكنيسة، ولأيام عدة كان يدفع الحجارة ويحمل العوارض الخشبية الثقيلة. ثم توقف فجأة، وبدلاً من ذلك راح يعلم رجال الحملة اللغة اللاتينية، لكي يوقف الحديث «بهذه اللغات اليهودية». مرة ركع على ركبتيه وخلع قميصه ولفه حول قدم أكبر السلتيين الثلاثة سناً. كان فعلاً مدهشاً؛ إذ رغم أن القدم لم تكن نظيفة ولكنها لم تكن مصابة.

كان يلح على صحبة (كلود) الدائمة. في البداية رجا (كلود) أن يمتعه بقراءات مختارة من القديسين القدماء. بعد مضي فترة كان يصحو من نومه فزعاً وينادي (كلود)، ثم أصبح بعد ذلك غير قادر على النوم إذا لم يضع رأسه في حضن (كلود). وكان (كلود)، حسب عادته، يتحدث دون توقف، ونظراً لأن أحداً لم يزجره فقد تكلم أكثر من المعتاد. يوماً بعد يوم كانت السلطة تنتقل من الكونت إلى (كلود)، فكان يستطيع أن يجوع الرجال أو يجلدهم حسب مزاجه. كتب في مذكراته: «الأرض والإنسان والثلج والعذاب والموت - كل هذه اقنعة لمملكة السماء التي أتوجه إليها بخط مستقيم دون أن أنحرف يميناً أو يساراً، أسير بروح فرحة».

ثم توقف الثلج وهطلت أمطار الشتاء ليل نهار باندفاع ممل وملح. أخذ الثلج يذوب من فوق قمم التلال، وغطى الأرض طين كثيف. أصبح البرد أشد رطوبة وتحول إلى جليد سام، خبيث الرائحة. بدت هنا وهناك آثار طريق تتلوى بين التلال ملأتها المياه.

وحتى في لحظات اليأس كان من المستحيل التفكير في مواصلة الرحلة.

في داخل الدير أخذت المواد الغذائية تتناقص. استلت الخناجر مرة أو مرتين حين كان يتم توزيع الطعام. انتشر مرض خبيث جعل الجميع يعانون عذاباً وآلاماً لا تطاق.

في إحدى الليالي تسللت مجموعة من الذئاب هائجة من الجوع. تسللت بصمت عبر الممرات الملتوية ودخلت إلى الأقبية ومزقت ما

تبقى من الخيول تمزيقاً تاماً. ولو لم تثر رائحة الذئاب السلتيين الثلاثة لأصبحت حياتنا جميعاً في خطر. قفز السلتيون وهجموا على الذئاب بحرابهم وبالمشاعل والصرخات والخناجر والحجارة. في ضوء النار اشبهت تعابير وجوه الرجال الذئاب.

بعد هذه الحادثة نظم (كلود) حراسة ليلية. وأصبح الرجال ينامون محاطين بأكوام من الجمر المتقد. منع الحراس الذئاب من التسلل مرة أخرى، ولكنهم عجزوا عن منع الرعب الذي كان يثيره نباح الذئاب الذي كانت تحمله الريح الليلية فينفذ إلى نخاع الروح. تقلصت الروح واستجابت بعواء داخلي.

وفي الصباح الباكر لأحد الأيام شاهدوا عن بعد شكلاً معتماً يسير على الثلج. كان مسافر يتحرك ببطء على خط الأفق، يسير مستقيماً يتحسس طريقه، مرتدياً عباءة سوداء، يخفي رأسه في داخل قلنسوة سوداء. ربما كان ناسكاً متجولاً أو راهباً مجنوناً. لم يستجب الرجل لصرخاتنا ولم يحد عن طريقه. مر الغريب أمام عيوننا، متقدماً ببطء عبر الثلج اللين نحو الأفق المقابل. ربما كان أصم أو رجلاً نذر الصمت. عداه لم نر إنساناً آخر طيلة فصل الشتاء.

تزايدت حدة البرد إلى أقصى استطاعتها. غطت القروح الناتجة عن البرد أجساد الرجال. والخيول التي نجت من أنياب الذئاب ماتت في يوم واحد. تناولوا لحمها نصف مطبوخ لأنه لم يعد إلا القليل مما نشعل به النار.

رفعت روح التمرد رأسها تدريجياً، كانت مكبوتة ولكنها

مهددة. كان الخدم بعيون محمومة يتهامسون سوية في الأركان. وعندما يمر كلود قربهم يصمتون فجأة أو يبدأون برمي النرد. ترددت الهمسات خلسة في ظلمة الليل.

في يوم جازف الزمار بحياته وتسلق البرج المتداعي، نجح في تصليح الأجراس وبتزويدها بالحبال. كان يؤمن بقدرة الأجراس على طرد روح وخلق روح جديدة في الرجال. وعندما هبط الزمار من البرج وجذب الحبال فإن الدقات الصادرة كانت كسيرة، مريضة، تثلج الدم في العروق. من كل زاوية في الدير ارتفعت أمواج خشنة، قاسية من الأصداء.

لهذا تخلوا عن الأجراس وطلبوا إلى الزمار أن يعزف ليهدئ تمتمات الصمت.

كان عزف الزمار قادراً على تحريك أوتار القلب. نغماته داعبت قلوب الرجال كيد. شيء في داخلهم تحرك ولان. لمعت النار بقتامة على دائرة الوجوه المظلمة ذات التقاطيع الغليظة الشعثاء. عندما تنطلق الألحان كانت تمر ارتعاشة أو رجفة حول الشفاه التي شققها البرد. كانت تلك اللحظة أكثر مما يستطيعون احتماله. كانوا مثل حجارة متجمدة في لوح جليدي تحللها أبسط لمسة دفء. ولد الزمار في داخلهم توقاً واشتياقاً مكبوتين. فجأة ينطلق أحد الجالسين صارخاً كأنه طعن بحربة. كانت صرخة رجل جريح استعاد وعيه وأحس بالألم فجأة.

كانت ألحانه بسيطة، كالألحان التي نسمعها في الريف صيفاً، وبين حين وآخر ينطلق الزمار بأغنية ناعمة دافئة مثل أغنيات

الصبايا الفلاحات عندما يتصورن أن لا أحد يسمعهن. كان بعض الرجال يشاركون الزمار الغناء كأن حياتهم قد انفتحت مرة أخرى من خلال الغناء. حتى الكونت كان يستثار. كان هذا الرجل المتردي برأسه الساقط على صدره يرى في النهاية الضوء يمر من خلاله. تذكر زوجته، التي توفيت ذلك الصيف (لويز بومون)، ولكن زوجته الأولى (آنا ماريا) كانت طفلة عندما جاءوا بها وقدموها إليه، وكان هو أيضاً مجرد صبي. كانت جميلة ولغتها صامتة. عندما رآها للمرة الأولى واقفة بالباب نظر إليها وكانت هي تنظر تحت إلى الأرض أو ربما لنعلها. يتذكر الآن، في هذا الضوء الشاحب، كيف أمسك بيدها وقادها إلى الاقطاعية، إلى الحدائق والكروم، ثم إلى الغابة، كما تعود أجداده قبله أن يسيروا بعرائسهم عند وصولهن. يتذكر ثوبها، كان بلون الدفلى، والنظرة المفاجأة في عينيها، وتموجات الخوف تنساب مسرعة فوق جلدها كما تفعل فوق جلد مهرة صغيرة. يتذكر صمتها الطويل الممتد، وصمته هو وتغريد العصافير، ورؤوس الأشجار مصبوغة بأشعة الشمس التي كانت تهبط مختفية في الغرب. يتذكر زهو الحدائق ورائحتها لأن الفصل كان ربيعاً - وهدوء مسيرة النهر الذي كانت روائح المساء تداعبه. سارت (آنا ماريا) خلفه فأفلت يدها التي كانت ترتعش. وفجأة وهو في حالة اضطراب صمم أن يجعلها تضحك. أخذ يصهل كالحصان ويعوي كابن آوى، ومشى على يديه وقدميه مقلداً الأيل في فراره، ودبا مطارداً، ثم فجأة ألقى بنفسه من فوق صخرة عالية إلى النهر، وخرج منه يقطر ماء، وسقط لاهثاً عند قدميها، مقلداً بشكل كامل كلباً يتوسل بأن يداعب. كم كان

نقياً ذلك الصمت البعيد! ثم استسلمت. ضحكت ولمست رأسه بأطراف أصابعها، بينما هو، الكلب، المتزلف داعب يدها بوجهه. وعندما لمست شفتاه أصابعها قالت آنا ماريا: «أنت، أنت، أنت».

أغمض الكونت عينيه ونظر نظرة عمياء إلى الزمار. حدثه قلبه أن هذا المكان غريب وأنه حتى القدس ليست هدف رحلته هذه، بل هدف رحلة أخرى، بل لا رحلة على الإطلاق، ولا وجود لمدينة الله، وربما كان الزمار يهودياً متنكراً، وربما هو نفسه اليهودي وليس الزمار، لأن الحقيقة نقية جداً ولكن العيون لا ترى، النار ليست النار، والثلج ليس ثلجاً، الأحجار أفكار والريح نبيذ، والنبيذ هو الصمت، والصلوات أصابع، والألم جسر، والموت بيت ولمسة، والأغنية الدافئة المداعبة «أنت، أنت، أنت».

الخارج، كمضاد للحن الزمار، حيث اليأس والثلج يسقط ناعماً، يخنق كل شيء بقبلة رقيقة وحانية بشكل لا يصدق. وهكذا حدث أن الكونت اسكت الموسيقى وقال:

- «(كلود)، هذا الزمار ليس منا».

قال (كلود):

- «يا أبي، ألم تعرف هذا الزمار منذ كان شاباً؟ ألم يضعك جده على ركبتيه عندما كنت طفلاً؟»

قال الكونت:

- «(كلود)، لماذا تصر على حماية هذا اليهودي مني؟ إنه

يتعقبنا وقد ضعنا بسببه ».

قال الزمار:

- « سيدي ».

قال الكونت وهو مستغرق في التفكير، قال بحزن كأنه يتحدث من مكان بعيد:

« أيها الزمار أنت عزيز علي، إنك يهودي حبيب، ويجب أن أقتلك حتى تموت ».

لم يتوسل الزمار للابقاء على حياته، ولكنه وضع رأسه بين ركبتيه وكف عن الحركة. وقف الكونت وأمسك حربته، ثم توقف بجوار الزمار. اتكأ على حربته وعيناه مغمضتان. كان يفكر، أو ربما كان متردداً. اتكأ أكثر على حربته وخرجت تنهدة من حنجرته. اتكأ أكثر وأكثر على حربته فنفذت خلال جسده، فبدا كأنه مستغرق بعناق غير مرئي، ثم تهاوى وسقط ساكناً.

بعد موت الكونت هرب اثنان إلى الثلج، اختفى معظم الخدم حاملين معهم الطعام القليل المتبقي. وكتب (كلود) زعيم تسعة صليبيين بيد مرتعشة وعينين مشتعلتين ولحية يلوثها اللعاب: « تأخرت المعجزة. تم إذلال (كلود)، (كلود) القديس ألقي في أعماق هوة، ولكن خلف الوحل يلمع ضوء وأنا أسير نحوه بثبات لأتطهر به إلى أقصى ما يطيقه الجسد ».

رعب تلك الليالي الأخيرة. وجوه الرجال الذين تساقطت أسنانهم وتآكلت شفاههم بالبرد. كانت بيضاء كجماجم في ضوء

الليل. الصراخ. الضحك. تحولوا إلى وحوش ينهشون لحمهم بأسنانهم، يسقطون على ركب نحيلة ليعبدوا البرق الذي يلمع عبر السماء الليلية. والرؤى. موكب مضيء فوق رؤوسهم، أشكال أشباح شاحبة، تومض من أبعد المسافات الجليدية.

في آخر ليلة كانت هنالك علامة. خلال الثقوب التي في السقف رأوا الغيوم السوداء تنفرج قليلاً، كاشفة نجوماً هزيلة، وخلف النجوم رأوا هالة.

وهكذا، في النهاية، دون خيول أو ثياب أو طعام، دون نساء وخمر، البرد يمزق أقدامهم العارية، نهضوا متوجهين إلى القدس. من المؤكد أنه كان عليهم أن يبدأوا هكذا.

تسعة ظلال مرتعشة، (كلود) الأحدب يخطو في مقدمتها، ثم الزمار والإخوة الثلاثة، أربعة خدم قد فقدوا عقولهم منذ فترة ساروا في مروج بيضاء من الأفق حتى الأفق، فوق أرض بيضاء، تحت سماء بيضاء، ساروا وساروا.

لم يتجهوا إلى بيوتهم، فلقد تخلوا عن كل ما يتصل بالحياة الإنسانية. ولا حتى نحو القدس التي ليست مكاناً بل هي حب مجرد. وقد نزعوا عنهم أجسادهم، أصبحوا أكثر وأكثر نقاء – ساروا إلى قلب موسيقى الأجراس وبعدها إلى غناء الملائكة وخلف ذلك أيضاً ساروا، تاركين وراءهم أجسادهم الكريهة. ساروا سائلين إلى الأمام، يسيلون نافورة بيضاء فوق لوحة بيضاء، قصداً مجرداً، بخاراً هائماً، وربما سلاماً.

* * *

هوامش المترجم

(1) كان الطب القديم يرى أن الإنسان يتكون من أخلاط: الدم والبلغم والصفراء، وهي التي تقرر صحته وحالته النفسية.

(2) السلتيون: أفراد عرق هندي - أوروبي كانوا يقطنون أجزاء واسعة من أوروبا الغربية (قاموس المورد).

(3) تقليداً لعبارة المسيح «أنت تقول ذلك» رداً على سؤال المحقق: «هل أنت ملك اليهود؟».

(4) يعني بالصيد ملاحقة اليهود.

(5) أي من اليمين إلى اليسار عكس الكتابة الفرنسية.

Bibliotheca Alexandrina Library (GOAL)

أعتقد أنّ خير وسيلة أقدم بها كاتباً صهيونياً لا يكاد يكون معروفاً بين القراء العرب هي أن أبدأ بتقديم تلخيص سريع لرواياته الأربع التي أتيح لي الاطلاع عليها، وهي: «في مكان آخر، ربما»؛ «تل المشورة الشريرة»؛ «الحب المتأخر». أما الرواية الرابعة «الحروب الصليبية» فسوف يجد القارئ نصها الكامل هنا.

وبعد التلخيص سوف أنتقل إلى تحليلها الآيديولوجي، ثم أنتهي بدراسة الجوانب الفنية لهذه الأعمال الأربعة.

المؤلف

36

دار العويـر العلمي
ص.ب. ٤٢٣٧ المحطة
عمان ١١١٣١ الأردن

الغلاف: زهير أبو شايب

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي، هـ: ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧